دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي

في العصر الحديث

دكتور

عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

ووكيل كلية التربية لشئون التعليم والطلاب

فرع جامعة القاهرة بالفيوم

- مشايخ حارات القاهرة في القرن التاسع عشر
- صالون الأميرة نازلي فاضل
- المقاهي والصالونات الأدبية وأثرها في تاريخ مصر
- علي مبارك وروضة المدارس
- مجتمع القاهرة كما صورته ثلاثية نجيب محفوظ
- المؤرخون الهواة ودورهم فى كتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر
- المرأة المصرية والتعليم الجامعى
- المرأة فى حياة زعماء مصر السياسيين

مكتبة الصفا والمروة

ديرب نجم - شرقية

ت : ٧٦١٤٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــدمة

تتناول هذه المجموعة من الدراسات بعض جوانب الحياة الاجتماعية فى تاريخ مصر الحديث كان لابد لها أن تخرج إلى النور ، وتتحول إلى سطور تضيف إلى ما كتبناه عن هذه الفترة صفحات تجمع بين الفائدة والطرافة ، وتوضح المزيد من جوانب الحياة المصرية فى ذلك العصر الزاخر بالمؤثرات والمتناقضات ، الذى تداخلت فيه الفروق بين التجديد والتقليد ، وبين النهوض والتغيير ، وبين الاصلاح والاستبدال .

وقد رغبت فى تجميع هذه الدراسات التى تجتمع فى فلك واحد هو تاريخ مصر الاجتماعى كى تكون أيسر منالا للراغب فى الاطلاع عليها والإفادة منها . وقد تناولت الدراسة الأولى مشايخ الحارات بالقاهرة فى القرن التاسع عشر ، وهذه الدراسة ألقيت فى سيمنار كلية البنات جامعة عين شمس فى عام ١٩٩٥ ، وتناولت الدراسة الثانية صالون نازلى فاضل وهذه الدراسة ألقيت فى سيمنار كلية الآداب جامعة عين شمس فى عام ١٩٩٥ أيضا .

وتناولت الدراسة الثالثة المقاهى والصالونات الأدبية وأثرها فى تاريخ مصر فى نهايات القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، وهذه الدراسة ألقيت ضمن أبحاث الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى يناير ١٩٩٦ .

أما الدراسة الرابعة فكانت عن على مبارك وروضة المدارس وقد ألقيت فى ندوة على مبارك بالجمعية التاريخية فى ديسمبر ١٩٧٩ .

وتناولت الدراسة الرابعة مجتمع القاهرة كما صورته « ثلاثية نجيب محفوظ » التى نشرت قبل ذلك فى كتابنا « مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر » وتناولت الدراسة الخامسة « المؤرخون الهواه ودورهم فى كتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر » والتى ألقيت فى ندوة « حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة والتى أقامها مركز الدراسات والوثائق الإقتصادية والقانونية والإجتماعية CEDEJ فى الرابع والخامس من نوفمبر ١٩٩٥ وتناولت الدراسة السادسة المرأة المصرية والتعليم الجامعي والتى عرضت من قبل بسيمنار كلية البنات . وتأتي الدراسة الى نهايتها بموضوع طريف عنوانه « المرأة في حياة زعماء مصر السياسيين » .

أسأل الله أن يعصمنا من الذلل ، ويرزقنا السداد فى القول والعمل .

د . عبد المنعم الجميعي

القاهرة - المهندسين

فى المحرم ١٤١٧ - يونيو ١٩٩٦

١ - مشايخ حارات القاهرة في القرن التاسع عشر

مع أن نظام مشايخ الحارات يبدو فى وقتنا الحالى كأحد الأنظمة المتخلفة المثيرة للتهكم والسخرية ، ومع أن البعض كان يضرب المثل بالشخص الذى يوصم بالسفه والابتزاز والجشع والنهب بأنه شيخ حارة مثلما فعل « يعقوب صنوع » فى جريدته « أبو نظارة زرقاء » عندما شبه الخديو اسماعيل باشا بشيخ الحارة [١] .

ومع أن هذه الوظيفة ارتبط اسم صاحبها بالرشوة والدهاء والمكر والاحتيال ، وأن فى مقدوره أن يأخذ أى شخص من الدار إلى النار ، وأن يخفى الجريمة إذا وقعت أو يختلق لخصمه جريمة إن أراد وأن الخير والشر فى جعبته يوزعهما على من يشاء بالقدر الذى يشاء فإن هذه الوظيفة كانت لازمة من لوازم الحكم والإدارة فى مصر فى القرن التاسع عشر خاصة وأن السمة الأساسية للحكم فى ذلك الوقت كانت غير مباشرة ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم كانت فى حاجة إلى وسيط .

ومع أن هذه الوظيفة ظل يشوبها الكثير من العيوب والمفاسد فإنها استمرت مئات السنين بحجة أنها عين الحاكم ويده ولسانه وأن صاحبها يمثل صلة جيدة بين السلطة والناس .

وعلى الرغم من اندثار هذا النظام فى الوقت الحالى خاصة بعد استحداث البطاقات الشخصية والعائلية وانتشار الوعى بين المواطنين إلى حد ما فإنه ما زال يحمل فى طياته تراثا إجتماعيا وإدارياً لأجيال عدة سابقة على عصرنا ، كما أنه يمثل صورة أقرب إلى الحكم المحلى الذى كانت تعيشه المدن المصرية منذ مئات السنين وإن كان هذا النظام قد تراجع الآن أمام النظم الحديثة فى الإدارة فإن بصماته لا زالت واضحة فى كثير من صفحات تاريخنا الحديث والمعاصر .

---

(١) أبو نضارة زرقا : العدد السابع ، ص ٢ .

ومع أن تيار مدرسة التاريخ الاجتماعى فى مصر قد تطور إلى حد كبير ، وأصبح له رجالاته المتفردون فلا أدرى لماذا لم يتطرق أحداً منهم لدراسة هذا الموضوع على الرغم من أهميته خاصة وإنه لا يزال بكرا وفى حاجة إلى من يدرسه باستفاضة لتغطية كافة جوانبه .

حقيقة أن جذور هذا الموضوع يحيط بها الكثير من الغموض خاصة وإنه ظهر قبل أن تحدده قوانين أو مراسيم . فمنذ أن نشأ نظام مشايخ الحارات ووضعه القانونى والإدارى غير واضح فلم يتناوله تشريع معين أو تنظمه لائحة خاصة يمكن للباحث الامساك بتلابيبها ، وإلى جانب ذلك فإن شيخ الحارة ليس موظفا فى الدولة ، ولا يسرى عليه ما يسرى على باقى موظفى الدولة فلا يعين على عقد أو يصدر بتعيينه قرار . ومن هنا فالبحث عنه فى بطون الكتب والوثائق لا يفى إلا بالقليل . يضاف إلى ذلك فإن مؤرخى العصر الاسلامى الذى بدأت جذور هذا النظام فى حياتهم وكانوا شهودا عليها لم يتعرضوا لنظام مشايخ الحارات ، وإن كان البعض منهم قد أشار إلى وجود الحارات والخطط والدروب والأزقة [1] .

وطالما أن الحارة كانت أسبق إلى الظهور من شيخها فإن المدخل إلى هذا الموضوع يحتم علينا العودة إلى بداياته .

١ - نشأة الحارات بالقاهرة :

ارتبط نظام مشايخ الحارات بنشأة المدن وتقسيمها إلى أحياء أو أقسام ثم بسكنى عامة الناس فيها .

---

(١) تقى الدين المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية جـ ١ : فى ذكر مدينة القاهرة ، ص ٣٦٥ .

فالقاهرة التى أنشأها المعز لدين الله الفاطمى فى عام ٣٥٨ هـ - ٩٦٨ م لتكون مقرا لحكمه قسمت إلى حاميات تحيط بقصور الخليفة والحكومة ولم يسمح للعامة بالسكن فيها بل كانت الفسطاط هى محل إقامتهم لذلك لم تعرف القاهرة نظام الحارات عند انشائها .

وبعد أن تعثرت أمور الدولة الفاطمية واندثر بنيانها وجاءت الدولة الأيوبية سمح للعامة بالاقامة فى القاهرة بصفة دائمة ، وانشاء مناطق سكناهم بها ومن هنا نشأت الحارات وقد أشار المقريزى فى خططه إلى ذلك فقال : « إن القاهرة انما وضعت منزل سكنى للخليفة ، وحرمه ، وجنده ، وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ، ويلتجىء إليها ، وإنها ما برحت هكذا حتى كانت السنة العظمى فى خلافة المستنصر ، ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة .. فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة .. وسكنوها . فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .. فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) فنقلها عما كانت عليه من الصيانة وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة وأسكن فى بعضها ، وتهدّم البعض الآخر وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده فصارت خططا وحارات ، وشوارع ، ومسالك ، وأزقة » [١] .

---

(١) الخطط المقريزية ، مصدر سابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

وفى أعقاب ذلك تكتلت كل فئة من فئات العامة التى ارتبطت مصالحها ببعض وأقامت مساكن خاصة بها دون تخطيط أو تنظيم[١] سوى أن يجعل الشخص مسكنه فى مأمن من اللصوص فيحتمى بمسكنه فى مساكن الجيران الأخرى ، كما أخذ أصحاب الطوائف والحرف يفدون إلى القاهرة جماعات للاستيطان والسكنى ، واستقلت كل طائفة متجانسة نسبيا فى مكان محدد أطلق عليه حارة فوجدت حارات المغربلين ، والنحاسين ، والصنادقية ، والصاغة وغيرها .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك حارات خاصة تسكنها الطبقات الراقية ، وبعض الأمراء وأتباعهم يقيمون حولها أسوارا ، ويعينون عليها حراسا خصوصيين .

وقد يتساءل البعض إذا كانت الفسطاط قد أنشئت قبل القاهرة ، وكانت موطنا للعامة وبها حارات وأزقة فلماذا لم نأخذها كمثال لدراستنا بدلا من القاهرة ؟

أقول إذا كانت الحارات قد وجدت فى الفسطاط قبل انشاء القاهرة ، فإن فكرة وجود المشايخ أو الأشخاص المشرفين عليها لم تظهر إلا بعد انشاء القاهرة واستيطان العامة بها .

وعلى أى حال فقد ظل تقسيم القاهرة كما هو عليه حتى جاء الحكم العثمانى لمصر وخلاله كانت القاهرة قد انقسمت إلى عدة أحياء بلغ عددها خلال القرن الثامن عشر ثلاثة وخمسين حيا من أبرزها حى القلعة ، وحى بركة الفيل ، وحى الأزبكية . وكان الحى يتكون حينذاك

---

(١) وصف على مبارك هذه الحارات بأنها كانت كثيرة الانعطافات ضيقة المسالك ، ليست على هيئة انتظامية ، بل بعض البيوت بارز على الطريق ، والبعض الآخر داخل عنه .

انظر : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، جـ ١ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ .

من عدد من الشوارع الصغيرة ليس لها إلا منفذ واحد تتصل عن طريقه بأحد شوارع المدينة الرئيسية ، وينقسم الحى من الداخل إلى عدد من الحارات تؤدى إلى الشارع الرئيسى للحى الذى يعرف باسم الدرب ويتصل فى النهاية بالشارع الكبير عن طريق بوابة وكان لكل حارة بوابة كبيرة عبارة عن قوس من البناء يعلوه صف من الفتحات ، ويغلقه مصراع (ضرفة) كبير من الخشب المقوى بعوارض حديدية ، وكان يحرس هذه الأبواب خفراء يؤجرون من بين أهالى الحارة وقد وصف البعض هؤلاء ، وكأنهم مقيدوا القدمين بواسطة قيد مفتاحه بيد سكان الحارة حتى يكونوا مطمئنين من حراستهم لحارتهم [١] .

وهذه الأبواب كان من السهل اغلاقها بأقفال خشبية (ضبة) [٢] ولم تكن مخصصة للقيام بأى دور دفاعى أوقات الحرب ، وإنما كانت مخصصة فقط لحماية أمن الحارات ليلا ، والحيلولة دون اقتحام اللصوص لها فما أن يحل الليل حتى كانت تغلق أبواب الحارات ، ولم تكن الأبواب تفتح ليلا إلا لأبناء الحارات أنفسهم أو لزوارهم المعروفين [٣] ولا يتأخر أحد بعد العشاء إلا لضرورة ، وعليه أن يبلغ البواب بذلك حتى يفتح له البواب عند حضوره [٤] .

وكان أهل الحارات لكثرة الحوادث وانتشار اللصوص « يبالغون فى متانة الأبواب والمحافظة على البيوت والحارات فيصفحون الأبواب

---

(١) ليلى عبد اللطيف : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧ ، ص ٧٧ .

(٢) غلق من الخشب ذو مفتاح يغلق به الباب .
انظر المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، جـ ١ ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٥٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف : الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٨ ، ص ٣٨٤ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٤٨ ، ص ٥٢ .

بصفائح الحديد ويسمرونها بالمسامير الكبيرة ، ويفرطحون رؤوسها ، ويجعلون باكتاف الباب السلاسل المتينة ، ويجعلون للباب الضبة والضبتين فى الخارج والداخل ، ويزيدون من الداخل التارباس ، وهو خشبة طويلة ينقرون لها بالحائط نقرا تبيت فيه . فإذا جاء الليل أو خيف أمر سحبوها من مقرها بواسطة حلقة فى طرفها فتأخذ فى عرض الباب أو آخره ... وكانوا يتفننون فى الحيل لمنع الضبة من الفتح بعمل الدواسيس ، وشق المفاتيح ، ووضع السواقط » [١] .

ومع أن نظام الحارات كان يمكنّ السلطات من رصد تحركات الأشخاص الذين ترتاب منهم ، فإنه كان يسبب لها الضرر فى بعض الأحيان إذ كان بامكان أى حركة عصيان أهلية اغلاق الأبواب والتحصن بداخل الحارات ، واطالة أمد المقاومة .

٢ - ظهور نظام مشايخ الحارات :

ظهر بين سكان الحارات بعض الأشخاص من ذوى الكفايات والقدرات الشخصية والاجتماعية ، فرضوا أنفسهم على السكان وهيمنوا بشخصيتهم على زمام الأمور فتدخلوا فى المنازعات القائمة بينهم ، وعملوا على ايجاد الحلول المناسبة لها مماجعلهم محط أنظار الطائفة التى ينتمون إليها فأنابتهم عنها فى تصريف شئونها والمحافظة على النظام ، وفض صغير المشاكل ، وطرد من يعكر صفو الجيران [٢] .

ولما كان لقب شيخ [٣] هو المتبع فى ذلك الوقت للتعبير عن احترام الناس لكبيرهم خاصة وإنه كان يطلق على رؤساء طوائفهم وحرفهم فقد

---

(١) على باشا مبارك : الخطط ، مصدر سابق ، ص ١٩٧ .
(٢) ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٠ ، ص ٧٢ .
(٣) كلمة شيخ كانت تعنى الشخص الذى يتميز بكبر السن .
انظر دائرة المعرف الاسلامية ، ص ٢٧٥ تحت مادة شيخ .

أطلق هذا اللقب على هؤلاء . وكانت الحارات تخضع لسلطتهم يعاون كلا منهم نقيب أو أكثر ، وفى حالات كثيرة كان شيخ الطائفة الحرفية التى تسكن الحارة هو نفسه شيخ الحارة [١] .

ونتيجة لحاجة الحكومة إلى رجال يعاونونها فى اتصالاتها بأهل الحارات ، ويكونوا همزة وصل بينها وبينهم فقد استعانت بهؤلاء بطريقة تلقائية ، ودون أن يسن لهم تشريع أو قانون ، أو أن تحدد وظيفة شيخ الحارة ومن أى جهة كان يستمد سلطته . ونتيجة لذلك لم تتعرض المصادر التى كتبت عن هذه الفترة إلى ظهور نظام مشايخ الحارات وأعمالهم كما هو متبع بشأن عمد ومشايخ البلاد .

وأول اشارة على ما يبدو إلى هذا النظام وردت عند « ابراهيم المويلحى » فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » والذى أرخ فيه لفترة من أيام المماليك فأشار إلى شيخ الحارة وبعض اختصاصاته عندما تحدث عن مشادة حدثت بين أحد الباشاوات ومكارى [٢] نتيجة لرفض الأول دفع أجرة ركوب الحمار الذى يملكه الثانى وذهابهما إلى قسم الشرطة ، وطلب المحقق من أحدهما ضامن يضمنه ، ولما تقدم أحد الأهالى لضمانه لم يقبل طلبه إلا بتصديق شيخ الحارة ، وأن شيخ الحارة لم يقبل التصديق على الضمان قبل أن يحصل على عشرة قروش [٣] .

ومعنى ذلك أن وظيفة شيخ الحارة كانت ضمن النظام القائم ، وأن من ضمن اختصاصاتها التصديق على الضمانات الشخصية للأفراد . ويبدو أن هذا النظام قد اندثر أو كاد عندما وقعت مصر فى

---

(١) ليلى عبد اللطيف : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) الذى يقوم بتأجير الحمير .

(٣) محمد المويلحى : حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن ، القاهرة ، مطبعة مصر ، الطبعة الرابعة ، ص ١٤ ـ ٢٠ .

شباك الحكم العثمانى . يقول على مبارك فى خططه . وكذا كان الاهمال فى أمور الضبط فلا تتوفر للمكلفين به إلا إذا كان على وفق الكبير أو الأمير فكل له غرض لا ينفذ سواه وأحكام الخط أو الدرب تحت سلطة من يسكنه من الأمراء (١) .. كما أوضح أنه لم يكن هناك اعتناء بأمر نظافة الحارات ، فكانت القاذورات تلقى بجانبها ولا أحد يمنعها . وبالجملة فقد كان الخراب عم والدمار طم . وعمت الأهوال جميع القطر (٢) .

وبعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ م أخذت فى تنظيم أمور البلاد بالشكل الذى يتفق مع أهدافها العسكرية ، فقسمت القاهرة إلى ثمانية أقسام على رأس كل منها شيخ يسمى شيخ التمن ، وقسمت الأقسام إلى حارات ولكل حارة شيخ يسمى شيخ الحارة ، ومع أن الفرنسيين حددوا مرتبا شهريا لشيخ التمن فإنهم تركوا شيخ الحارة بلا مرتب ، وتركوه يتكسب من النقود التى يأخذها برسم الحلوان (٣) من أهل شياخته وقد أوضح على مبارك ذلك فى خططه بقوله « ولكل تمن شيخ يعرف بشيخ التمن مرتبه شهريا من المحافظة مئة قرش صاغ ، ولكل شياخة شيخ يعرف بشيخ الحارة ليس له مرتب من المحافظة وانما تكسبه يكون من النقود التى يأخذها برسم الحلوان من سكان الأملاك التى فى شياخته لأن العادة أن من أراد أن يؤجر بيتا فى حارة من الحارات يكون ذلك بمعرفة شيخ الحارة ، وبعد تأجيره للبيت يدفع له أجرة شهر برسم الحلوان (٤) » .

---

(١) على مبارك : الخطط ، جـ ١ ، مصدر سابق ، ص ١٩٩ .
(٢) نفسه ، ص ٢٠٠ .
(٣) اجرة الدلأل والرشوة .
انظر المعجم الوسيط ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .
(٤) على مبارك : الخطط ، جـ ١ ، مصدر سابق ، ص ٢١٦ .

وحول الدور الذى أوكلته الإدارة الفرنسية لمشايخ الحارات ، والسلطات التى منحتها لهم فقد أوضحها الجبرتى فيما يلى :

١ – قيامهم بتنفيذ الأوامر وابلاغ المنشورات الموجهة منها إلى الأهالى والأمثلة على ذلك عديدة نذكر منها :

(أ) بعد أن صدر المرسوم الخاص بقيام الأهالى بتعليق القناديل أمام منازلهم ليلا قام مشايخ الحارات بالتنبيه على الأهالى بضرورة تنفيذ هذه التعليمات .

(ب) عندما اتخذت الادارة الفرنسية الاجراءات اللازمة لوقف انتشار الأوبئة والمحافظة على الصحة العامة ، وأمرت الأهالى بنشر الثياب والأمتعة والفرش خمسة عشر يوما على أسطح المنازل ، وتبخير البيوت وتنظيفها ورشها كلفت مشايخ الحارات بمراقبة الأهالى خلال تنفيذ تلك الارشادات ووضعت مع كل منهم عسكرى من طرف الفرنساوية وأمرأة للكشف على أماكن النساء [١] .

ونتيجة لتفشى مرض الطاعون وصعوبة السيطرة عليه أصدرت السلطات الفرنسية منشورا ألزم مشايخ الحارات بضرورة سرعة الابلاغ عن حالات الاصابة المشتبه فيها ، وحذرت كل من يقصر فى ذلك بعقوبة الجلد ثم ازدادت العقوبة ووصلت إلى حد الاعدام [٢] .

٢ – كلف الفرنسيون مشايخ الحارات باحصاء أسماء من يموت ، ومن يولد داخل حاراتهم ، والتعرف على ذلك من أهل كل بيت ، ومن النساء القوابل ، وخدمة الموتى وغيرهم .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٣ ، القاهرة ، المطبعة العامرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٨٤ (ربيع الثانى ١٢١٤ هـ) .

(٢) الجبرتى : مصدر سابق (حوادث ١٧ شوال ١٢١٣ هـ - ٢٤ مارس ١٧٩٩) .

٣ - يذكر الجبرتى أنه فى أعقاب ثورة القاهرة الثانية وتحذير السلطات الفرنسية لأعضاء الديوان والمشايخ « اجتمع المشايخ ببيت الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان وحضر الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم وأنذروهم وأمروهم بضبط من هو دونهم وأنهم لا يغفلوا أمر عامتهم وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين وإنهم هم المأخوذون بذلك [١]..

٤ - عندما حاول الجنرال مينو توفير الموارد اللازمة لتموين جيشه ودفع مرتبات جنوده عن طريق فرض الضرائب على الأهالى كلف مشايخ الحارات بقبض المبالغ المقررة على حاراتهم [٢] وعندما اضطرب حبل الأمن وتزايد عدد الغرباء الوافدين إلى القاهرة حرر مينو منشورا إلى مشايخ الحارات يتضمن ضرورة الابلاغ عن أسماء الغرباء الذين يفدون إلى المدينة والجهات التى أتوا منها ، كما يلزمهم أيضا بالابلاغ عن سفر أهل القاهرة خارج بولاق والجيزة ومصر القديمة [٣] .

٥ - عندما رغبت الادارة الفرنسية فى جمع بعض الأهالى للاشتغال فى عمل المتاريس فرضت على كل حارة رجلين يأتى بهما شيخ الحارة ، ويتكفل شيخ الحارة بدفع أجرتهما [٤] .

ولم يتغير نظام مشايخ الحارات كثيرا بعد خروج الفرنسيين من مصر فقد استعان بهم العثمانيون كما استعان بهم محمد على خلال فترة تنازع البقاء فى مصر بعد الحملة الفرنسية ويوضح الجبرتى ذلك فيما يلى :

---

(١) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٩ .
(٢) نفسه ، جـ ٣ (حوادث جمادى الأولى ١٢١٥ هـ) ، ص ١٤٣ .
(٣) د. أحمد الصاوى : فجر الصحافة فى مصر - دراسة فى أعلام الحملة الفرنسية ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٢٣٢ .
(٤) الجبرتى : المصدر السابق ، جـ ٣ (حوادث ١٢١٦ هـ) ، ص ١٨٨ .

١ - عندما دخل محمد باشا المعروف بأبى مرق الغزى [(١)] المرشح لولاية مصر إلى القاهرة ، وأراد التعرف على البيوت الخالية فيها أرسل إلى مشايخ الحارات وطلب منهم البحث عن طلبه [(٢)].

٢ - عندما حضر عساكر كثيرة من الأتراك والأرناؤط إلى مصر فى أعقاب الحملة الفرنسية ، وأرادوا السكن بالقاهرة أحضروا مشايخ الحارات وأمروهم باخلاء البيوت لسكناهم ، فلبى المشايخ الأمر ، وأزعجوا الكثير من الناس وأخرجوهم من دورهم بالقهر[(٣)] .

٣ - عندما أعد محمد على العدة لمحاربة المماليك بقيادة محمد الألفى طلب من مشايخ الحارات أن يبلغوه بأسماء من كان متصفا بالجندية أو كان يحترفها وأن يكتبوا أسماءهم ومحل سكنهم ففعلوا ذلك[(٤)] .

٤ - عندما تولى حسين البرلى منصب بيت المال أرسل لجميع مشايخ الخطط والحارات بأن يخبرونه بكل من مات من ذكر أو أنثى ولو كان ذا أولاد وورثة ، وكذلك على حوانيت الأموات [(٥)] .

وبعد أن استقرت الأمور لمحمد على ، وفرغ من الحروب التى خاضها وبدأ يهتم باصلاح أمور البلاد الداخلية صدرت أوامره بعمل

---

(١) تولى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين مباشرة ، وفى عهده عم الهرج وتضاعف الكرب .
انظر على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ ١ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٣ .

(٢) الجبرتى : مصدر سابق ، جـ ٣ (حوادث ربيع الأول ١٢١٦ هـ) ، ص ١٩٨ .

(٣) نفسه ، جـ ٣ (حوادث محرم الحرام ١٢١٨ هـ) ، ص ٢٥٤ .

(٤) الجبرتى : مصدر سابق ، جـ ٤ (حوادث ربيع الثانى ١٢٢١ هـ) ، ص ١٤ .

(٥) نفسه ، جـ ٤ (حوادث ربيع الأول ١٢٢٨ هـ) ، ص ١٨٦ .

لائحة تنظيمية للحارات ، ونشأ عن ذلك اتساع العديد من الحارات [١] كما صدرت أوامره بعقاب مشايخ الحارات التى تمتد أيديهم إلى الرشوة (البرطيل) ومعاقبة من لم يتمكن منهم من القبض على القتلة والمديونين وأمثالهم من المحكوم عليهم .

يضاف إلى ذلك أنه أمر بالتشديد عليهم لضبط الهاربين من بلادهم للاقامة فى المحروسة ، واعادتهم إلى الجهات التى وفدوا منها [٢] .

ويبدو أن مهنة مشايخ الحارات إلى ذلك الوقت كانت وراثية تؤخذ أبا عن أب وكبيرا عن كبير ، فمن كان آباءهم مشايخ حارات ثم توفوا انخرطوا فى هذه المهنة خاصة وأن آباؤهم أفرغوا فيهم خبرتهم ، ثم أنها مهنة سهلة المزاولة فطبيعة عمل شيخ الحارة لا تتطلب مهارة معينة أو تخصص فى فن معين ، وكل ما تتطلبه وجود شخص على دراية بالحارة وأهلها ، ويعرف أكبر عدد ممكن من سكانها وأن تكون شخصيته طابعها التحايل والدهاء وأن يكون لبقا فى تصرفاته خاصة مع رجال الادارة والبوليس عندما يكلف بعمل أو يكون مطلوبا أمام احدى الادارات للإدلاء بشهادة أو الابلاغ عن جديد أو للارشاد عن اللصوص الذين يعيثون فى حارته فساداً .

واستمر نظام مشايخ الحارات قائما فى عهد خلفاء محمد على (عباس الأول وسعيد) دون تغيير إلى أن وصل اسماعيل إلى أريكة الحكم فى عام ١٨٦٣ وحاول تنظيم أحوال مصر الادارية بشكل حديث ، واعادة النظر فى ترتيب الجهاز الادارى بما يتواءم مع العصر [٣]

---

(١) على مبارك : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(٢) دار الوثائق : دفتر ٢٥ أوامر ، صفحة ٢١ ، وثيقة رقم ٦١ تحت عنوان « أمر كريم إلى حبيب أفندى مأمور ديوان الجناب العالى بالمحروسة .

(٣) دار الوثائق : المعية السنية ، صادر الأوامر العلية إلى المجالس والدواوين والأقاليم والمحافظات ، سجل رقم ١٩٣٠ ، ص ١٦ ، وثيقة رقم ٩٩ .

ويتضح ذلك من وثـائق المعيـة السنية فتذكر الوثيقة رقم ٩٩ بتاريخ ٢٩ رجب ١٢٨٦ هـ (٤ نوفمبر ١٨٦٩ م) الارادة السنية الصادرة إلى نظارة الداخلية بشأن ضرورة مخابرة الضبطيات والمحافظات قبل تنصيب مشايخ الحارات وألا يتم تعيينهم إلا بعد اتحاد الرأى بين هذه الأطراف ، وألا يعزل أحدا منهم من منصبه إلا « بجنحة بعد المحاكمة وصدور المضبطة عنه حسب القانون » .

ومعنى ذلك أن هذا النظام بدأ يأخذ شكلا منظما طبقا لأوامر وقواعد مرعية من قبل الدولة إزاء ما يتبع عند تنصيب أو عزل مشايخ الحارات .

ومن المهام التى أضيفت إلى مشايخ الحارات خلال هذه الفترة أنه نتيجة لاجراء عملية تعداد السكان فى مصر فى عام ١٢٨٥ هـ أنيط بمشايخ الحارات مهمة الابلاغ عن الأفراد الذين يتوجهون إلى مناطقهم بقصد البيع والشراء أو الأخذ والعطاء ويقصدون الاقامة بها حتى يجرى عمل اللازم من اضافة أو تنزيل لأسمائهم فى التعداد [١] .

وفى عهد الخديو توفيق أخذ نظام مشايخ الحارات فى التبلور حيث أكد مجلس النظار فى مذكرة إلى الداخلية بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٣٠٤ هـ (٢٦ يناير ١٨٨٧) على دور مشايخ الحارات ، وأشار إلى أن اختيارهم يجب أن يتم بمعرفة المحافظة أولا بشرط أن يكون موافقا للقواعد والأصول المقررة ، وألا يكون التعيين معتمدا إلا بعد التصديق عليه من نظارة الداخلية .

---

(١) دار الوثائق : داخلية عربى - أوامر - محفظة رقم (١) ، وثيقة بعنوان « قرار مجلس شورى النواب » رقم ١٧ فى محرم ٨٥ بشأن التعداد .

وبالنسبة لعزلهم فإنه يتم عندما يثبت على أحدهم ارتكاب أمر يستوجب العزل بشرط أن يتم ذلك بمعرفة قومسيون يتشكل لهذا الغرض [١] ، وفيما عدا ذلك يظل شيخ الحارة فى وظيفته حتى وفاته طالما ظل قادرا على ممارسة مهامه أما إذا تعذر القيام بعمله نتيجة لمرضه أو كبر سنه يحال إلى لجنة من الأطباء للكشف عليه ، وإذا ثبت عدم لياقته يجرى رفته واختيار خلافه بمعرفة من لهم الصلاحية فى ذلك [٢] .

هذا بالنسبة للأمور العادية أما بالنسبة لغير ذلك فكان من الممكن أن يتعرض شيخ الحارة لعقوبة الصلب والسجن المؤبد والاعدام ففى أمر عام صادر إلى جميع المديريات بتاريخ ٤ جمادى الأولى ١٢٧٢ هـ يتضح تعرض مشايخ الحارات الذين يغمضون أعينهم عن الأشخاص الفارين من العسكرية للصلب على مرأى من الناس حتى يكونوا عبرة لغيرهم وأن يرسل إلى السجن المؤبد المشايخ الذين يتكاسلون فى جمع من هو مطلوب من الأشخاص للجهادية وتعيين مشايخ عوضا عنهم [٣] .

وإلى جانب ذلك فتوضح لنا الوثائق أنه بعد هزيمة الثورة العرابية واختفاء عبد الله النديم خطيب الثورة عن أعين السلطة هددت الداخلية باعدام من يأويه هو وشيخ الحارة أو التمن الذى يتبع له ففى بلاغ أرسله مصطفى باشا رياض ناظر الداخلية إلى مأمور ضبطية مصر يبلغ فيه كافة الأهالى ومشايخ الحوارى والأتمان والعمد والتجار والأعيان

---

(١) فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضا ، المجلد الثالث ، الاسكندرية ، ١٨٩١ ، ص ١٤٧ تحت عنوان « شيخ » .

(٢) دار الوثائق القومية : دفتر ٦١ مجلس خصوصى ، وثيقة رقم ١١٢ ، ص ١٣٧ تحت عنوان من المجلس الخصوصى إلى الداخلية بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١٢٩٤ هـ .

(٣) دار الوثائق : دفتر ١٨٨٣ أوامر صفحة ١٦٧ ، وثيقة رقم ٢٨ .

بالمحروسة بأنه إذا ظهر فيما بعد أن (النديم) كان مختفيا عند أحد بأى محل أو سبق مروره منه أو أقام عنده ولم يخبر عنه الحكومة ، فلا يكون جزاء هذا الشخص وشيخ حارته أو شيخ التمن الذى هو به إلا الاعدام [١].

ومعني ذلك أن الجزاء الذى كان يتعرض له شيخ الحارة كان فادحا إذا أهمل أو أخطأ ، فى حين أنه كان لا يتقاضى أجراً من السلطة على عمله ولا يتم مكافأته إذا أصاب .

والسؤال المطروح هو هل يمكن القول إن شيخ الحارة بالمدينة كان ظلا أو امتدادا لشيخ البلد فى القرية ، وهل كانت أهميته تختلف من حارة إلى أخري ؟ . الواقع أن الخلاف بين شيخ الحارة وشيخ البلد يرجع فقط إلى أن عمل شيخ الحارة لم يكن محددا كما إنه لم يكن موظفاً ولا يتقاضى أجراً من الحكومة بينما كان عمل شيخ البلد تقننه اللوائح ويقوم به فى نظير أجر من الدولة أما فيما عدا ذلك فكان منصب شيخ الحارة يكون غالبا فى يد الأكثر ثراء من الأهالى مثله تماما مثل شيخ البلد ، وإن كلا منهما كان يستمد نفوذه من المكانة التى يتمتع بها بين قومه ، ويعفى أولاده من الخدمة العسكرية (حتى عصر سعيد) ، وكلاهما استغل الناس ولوثت الرشوة التى حصلا عليها السمعة والشرف اللهم فيما ندر .

أما عن اختلاف أهمية شيخ الحارة من حارة ألى أخري ، ففى الحارات التى كان الجهل يسود بين سكانها كانت تتزايد أهمية مشايخها الذين كانوا يفرضون أنفسهم على أفراد شياختهم فرضا ويوهمونهم

(١) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣ ، ملف ٢٨٥ رقم ١٩٥٩ .

بأنهم يمثلون السلطة الحكومية فى شتى صورها وربما السلطة القضائية كذلك ، وكانوا ينتهزون شتى الفرص لابتزازهم بالمكر أو الاحتيال أما فى الحارات الأكثر نضجا فقد كانت الحاجة الى مشايخ الحارات تقل ، كما كانت سلطاتهمم تنكمش .

ولا يعنى ذلك أن كل مشايخ الحارات كانوا على هذا المنوال ففى بعض الحارات كان شيخ الحارة يعتبر نفسه من الناس وإليهم خاصة وأن ظروف الناس فى ذلك الوقت كانت فى حاجة إلى أن يكون بينها وبين الحكومة وسيطا ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك الوسيط هو شيخ الحارة ، فالناس كانوا ينظرون إلى الحاكم نظرة يشوبها الخوف والحذر ، وهذه المخاوف لا تزول من أذهانهم إلا إذا اطمئنوا إلى شخص قريب منهم يعرفونه ويعرفهم ، يعيش بينهم ويشرب مما يشربون ، ويأكل مما يأكلون ، يجلسون معه فى المقهى وأمام البيت ، وفى الزقاق وعلى ناصية الحارة . وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى شيخ الحارة فهو معقد آمالهم يلجأون إليه لحل مشاكلهم قبل الحكومة أو السلطة القضائية .

وإلى جانب ذلك فقد كانت الحكومة فى حاجة إلى وسيط بينها وبين الأهالى خاصة وأن السمة الأساسية للحكم كانت غير مباشرة ، وأن صلتها بالناس كانت جدّ قليلة ، ومن الطبيعى أن تؤيد نظام شيخ الحارة .

وخلاصة القول أن وظيفة شيخ الحارة لم تكن مقننة بتشريع أو قانون بل كانت تخضع لتعليمات وأوامر محلية تنظمها وتعدلها من آن لآخر ، وانها اندثرت خلال فترات عديدة من الحكم العثمانى ، كما أنها برزت وتطورت خلال الحملة الفرنسية وعصر محمد على فحقق مشايخ

الحارات مكانة اجتماعية ، وبرزوا كشخصية تنفيذية ، ومع ذلك فإن السلطة لم تضعهم ضمن رجال الضبطية فى أى وقت من الأوقات ، ولم تحدد أوضاعهم بتشريع أو لائحة معينة . وعلى الرغم من حصول بعضهم على مكافآت من الحكومة فى بعض الأحيان فإن ذلك لم يترتب عليه بحال من الأحوال اعتبارهم كخدمة فى الحكومة بل كانوا يعينون بأمر إدارى خارج نطاق الوظيفة الحكومية ، ولا يسرى عليهم ما يسرى على باقى موظفى الدولة ، ولا يعينون على عقد أو يصدر بتعيينهم قرار .

وقد كلف شيخ الحارة بأعمال من قبل القسم بعضها يتعلق بالضمانات الشخصية كما ورد فى حديث عيسى بن هشام وبعضها بتوزيع الفردة والطلبات وبقيد المواليد والوفيات والتوسط فى تأجير البيوت كما ورد فى الخطط التوفيقية وبعضها يتعلق بالأمن ومراقبة تنفيذ الأهالى للارشادات الصحية ، وتحصيل الضرائب والمشاركة فى تعداد السكان وجمع الناس للاشتغال فى الأعمال العامة كما ورد فى الجبرتى وبعضها يتعلق باحاطة الأهالى علما بقوانين الحكومة ولوائحها ، وضبط الهاربين من السجون ومراقبة المفرج عنهم وعمل التحريات عن الغرباء الذين يدخلون حاراتهم ، وابلاغ القسم بما يحدث داخل الحارات من جنح ومخالفات تصل إلى علمهم وضبط المخلين بالأمن والخارجين عن القانون . كما ورد فى ادوارد لين ومحافظ الثورة العرابية .

هذا الى جانب تكليفهم من القسم أو الادارة بأى عمل يطلب منهم . مما يعنى أن مشايخ الحارات قد لعبوا دورا مهما فى المدن المصرية طوال القرن التاسع عشر وأن الداخلية اعتمدت عليهم اعتمادا أساسيا فيما يتعلق بأفراد حاراتهم ، وأطلقت أيديهم فى كل شىء ولم تعطهم أى

شىء حتى رسم (الحلوان) لم تأذن لهم به . مما جعل أيديهم تمتد إلى الناس ليأخذوا المقابل فى نظير الخدمات التى يقومون بها لهم دون رقيب أو حسيب .

لقد انتهز معظم مشايخ الحارات وضعهم غير الواضح فامتدت أيديهم إلى أبعد حد داخل شياختهم ، وتداخلوا فى أعمال لا حصر لها وهم فى ذلك بمنأى عن القانون ، خاصة وأنه كان لا يوجد قانون يحدد اختصاصاتهم حتى يُطبَّق عليهم .

قد يقول البعض أنه كان يجب على الحكومة أن تقرر رواتب لهؤلاء فى نظير الخدمات التى يقومون بها ، وأن تعترف بهم كموظفين عموميين ، وأن تحدد سلطاتهم بشكل واضح حتى لا يضطرون إلى ابتزاز الأهالى بشكل أو بآخر .

الواقع أن شيخ الحارة فى بداية نشأة هذا النظام كان يعد فى نظر الدولة شخص من الأعيان أو سيد قوم يتقدم طائعا لخدمة أهالى حارته لذلك فلا مكافأة على عمله . وقلما يوجد سبب يقضى بخروج المشيخة من العائلات التى استقرت فيها بمعنى أن هذا المنصب فى العادة يكون فى يد الشخص الأكثر ثراءً وهو الذى يكون كذلك أكثر احتراما حيث يستمد نفوذه من المكانة التى يتمتع بها بين أهل حارته . ومع ذلك فقد تطورت الأمور ، واندس الأفاقون . وأصبح شيخ الحارة يستغل سلطته أحيانا ويأخذ من الناس أجرا نظير الخدمات التى يؤديها لهم .

ولما علت الشكوى منهم قررت الدولة منح مكافآت لهم ابتداء من عام ١٩٢١ م ثم انتهى الأمر بالغاء هذا النظام بعد عام ١٩٦٠ على أثر استحداث البطاقات الشخصية والعائلية .

* * * * *

٢ - صالون الأميرة نازلي فاضل [١]

من المهم لكل من يؤرخ للحياة الفكرية فى مصر الحديثة ويتطرق لينابيع حركة التنوير ، وما نتج عنها من تأثير ألا يتجاهل الصالونات الأدبية أو تلك الأندية الارستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى والفكر فى مصر من كتاب وخطباء وشعراء ومفكرين وسياسيين وصحفيين وغيرِهم وتدفعُهم إلى التسابق فى مضمار الرقى الفكرى والتمدن والتى كان من أبرزها صالون الأميرة نازلى فاضل ، وصالون

---

(١) ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل ابراهيم باشا ابن محمد على ، وشقيق الخديو اسماعيل والذى كان يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من بعده ، ولكن نظام توارث العرش قد تغير بفرمان مايو ١٨٦٦ الذي نقل العرش لأكبر أولاد اسماعيل وليس أكبر أفراد الأسرة مثلما حدث فى فرمان ١٨٤١ م . لذلك ظل مناوئا له حتى أضطره الخديو فى نهاية الأمر إلى التنازل عن جميع ما له بالقطر المصرى من الأملاك وغيرها .

للتفاصيل يمكن الرجوع إلى دار الوثائق : محافظ أبحاث ، محفظة ١٣٥ تحت عنوان « تراجم محمد على والعائلة » .

وإلى جانب ذلك كان من دعاة الحرية والدستور والثائرين فى وجه الاستبداد فى عاصمة الدولة العثمانية فطالب بالدستور فى عهد السلطان عبد المجيد لدرجة أن أطلق عليه البعض « أبو الأحرار » . ونتيجة ليأسه من العمل السياسى وفشل مؤامراته ضد الخديو اسماعيل انصرف إلى العلم والأدب فحوّل قصره إلى مدرسة كما كانت مكتبته الخاصة من أكبر المكتبات فى مصر مما جعل له منزلة خاصة فى قلوب المثقفين المصريين حتى مات فى عام ١٢٩١ هـ . وتميزت الأميرة نازلى منذ نشأتها بالذكاء والدهاء والجمال الفتان ، وقد اتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية نتيجة لتزوجها من سفير الدولة العثمانية فى لندن ، وبعد وفاة زوجها عادت إلى عاصمة الخلافة حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعا لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة فاضطرت للاقامة فى مصر فترة حيث ضاق الخديو عباس الثانى بها ذرعا أيضا ثم رحلت إلى تونس وتزوجت من السيد خليل بو حاجب نجل قاضى المملكة الشرعية بتونس ، ولما لم يطب لها المقام هناك استقرت فى قصرها بالقاهرة إلى أن ماتت فى نهاية عام ١٩١٣ .

أنظر : أوراق محمد فريد ، المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ، ص ١٢٣ . ومصطفى عبد الرازق : أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده ، مجلة الشباب ، العدد الأول فى ١٧ يناير ١٩٣٦ .

اسماعيل صبرى ، والمجالس التى كانت تعقد فى منازل على باشا مبارك ، ولطيف باشا سليم ، وسعد زغلول وغيرهم وما أعقب ذلك من ظهور صالونات مشهورة مثل صالون « مى » الذى ظل موضوعا محببا ومثيرا لدى العديد من المثقفين والقراء ، وصالون العقاد الذى احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل ، ودارت فيه موضوعات شتى من التاريخ والأدب والفلسفة والفن والسياسة والفكاهة .

إلا أن صالون الأميرة نازلى كان يعدُ من أبرز الصالونات فى مصر وأشدها تأثيرا فى الحركتين الأدبية والسياسية [١] خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر أمثال « شريف باشا » ، و« رياض باشا » ، و « سلطان باشا » ، و « لطيف باشا سليم » ، و « عمر باشا لطفى ، و « شاهين باشا » وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عرفت باسم جمعية حلوان السرية ثم الحزب الوطنى بعد ذلك [٢] .

كما لعب هذا الصالون دوراً هاما فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده الذى قاد حركة التفاهم بين السلفية والتحديث .

كما ضم هذا الصالون بين جنباته قاسم أمين وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول وابراهيم المويلحى وأديب اسحق وعلى يوسف وحسين رشدى وغيرهم من قادة الرأى والفكر والسياسة الذين لعبوا أدوارا هامة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

---

(١) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٣ ، ابراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٢) عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ – ٨١ .

هذا إلى جانب أنه كان يضم بين جنباته كبار المسئولين الانجليز أمثال ايفلين بارنج (لورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر وهارى بويل السكرتير الشرقى وكبار رجالات الاحتلال فى مصر أمثال المستشرق رونالد ستورز وغيره .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذا الصالون وصاحبته كانا من مظاليم التاريخ فلم يحظيا باهتمام من أحد ولم يبرز أهمية مكانتهما أحد ربما لأن هذه الأميرة كانت تنسب إلى الأسرة المالكة المعزولة كما أنها كتبت بعض المقالات فى الصحف الأجنبية ضد المصريين [١] وكانت على علاقة بالانجليز المحتلين لمصر .

لقد تربت الأميرة نازلى على النمط الأوربى ، وتثقفت بالثقافة الغربية ، وكانت تتكلم الفرنسية كاحدى بنات السين ذوات الثقافة العالية والأدب الرفيع هذا إلى جانب أنها كانت تُحسن اللغات الانجليزية والتركية والعربية . وكانت كما يذكر محمد فريد تقابل الرجال على العادات الأوربية ، وتحيى ليالى موسيقية فى دارها و« تكثر من شرب الخمر خاصة الشمبانيا على الطعام بل وقبل كل طعام » [٢] يضاف إلى ذلك أنها كانت تتداخل فى القضايا المنظورة أمام المحاكم مقابل سمسرة تأخذها باسمها أو باسم القضاة [٣] .

---

(١) للأميرة حديث نشره جرفيل Guerville الأمريكى فى كتابه الذى نشر فى لندن عام ١٩٠٥ تحت عنوان New egypt وصفت فيه الشباب المصرى بالخمول والكسل كما أن لها حديثا نشر فى الايجبسيان جازيت عام ١٩٠٩ ذكرت فيه أن الشباب المصرى لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به نفسه مما أهاج بعض الجرائد المصرية ضدها .

انظر : المقطم فى ٢٦ فبراير ١٩٠٩ .

(٢) انظر أوراق محمد فريد المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٨ ، ص ١٣٣ .

(٣) يذكر محمد فريد أنها تداخلت فى قضية السيدة ليلى هانم مقابل مبلغ كبير أخذت به كمبيالات عليها ، وأنها ارادت توكيله فى هذه القضية ولكنه رفض لأن سببها غير شرعى . للتفاصيل انظر أوراق محمد فريد ص ١٣٤ .

وقد كان قصر الأميرة نازلى مجتمعا للعظماء وقادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب من أجانب ومصريين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولم يقتصر صالونها على تدارس الشعر والأدب بل كانت تتدارس فى أروقة هذا الصالون موضوعات أخرى وتحل فيها عظائم الأمور وتعقد .

ففى صالونها كانت تناقش مسائل الاصلاح الاجتماعى وأحوال المرأة المصرية ، وتتدارس طرائف العلوم والآداب والفنون الجميلة وخلاصة الفكر الراقى .

وفى صالونها كانت تشجع أصحاب المواهب والكفاءات المتميزة التى حملت راية التنوير الفكرى فى مصر ، كما كانت أحيانا تناقش الكتب الأدبية التى تهاجم مصر [1] وتخاطب الصحفيين وترسل أراءها إلى الجرائد .

وفى صالونها دافعت عن أحمد عرابى وثورته ، ولم تمل الكلام عن نزاهة أغراضه ومما قالته عنه انه لم يكن جنديا فحسب لأن قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك ولو كان رجلا عنيفا لأخذ توفيقا مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رءوسهم وصار أميرا على البلاد [2] .

وفى صالونها تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى حيث قربت منها العديد من رجالات مصر السياسيين وغيرهم كما سبق القول .

وقد يرجع السبب فى ذلك أنها كانت تنتمى إلى فرع من الأسرة الحاكمة كان يدعى أحقيته بولاية العرش ، لذلك فإنها كثيرا ما ناوأت

---

(١) من أمثلة ذلك كتاب « سر تأخر المصريين » لداركور الفرنسى .
(٢) بلنت : التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر ص ٥١٦ .

الخديو اسماعيل ووقفت بجانب مناوئيه أمثال جمال الدين الأفغانى أثناء وجوده بمصر وخلال وجوده بالاستانة ، كما كانت تتجسس للسلطان العثمانى على الخديو عباس الثانى . وعليه كذلك للانجليز [١] .

يضاف إلى ذلك أنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة مما أدى إلى سخط السلطنة عليها [٢] .

وقد توثقت علاقة الأميرة نازلى بالأفغانى لدرجة أنه قال عنها أنها « تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى ، والمقام الأسنى » [٣] .

كما حاول أن يطلب لها من السلطان « وسام الشفقة المرصع » [٤] ولكنه لم يفلح فى ذلك .

كما توثقت علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه ببلاد الشام إلى القاهرة فى عام ١٨٨٨ خاصة بعد أن علم بمساعيها لدى الخديو توفيق واللورد كرومر ورياض باشا رئيس النظار وقتئذ فى اصدار العفو عنه فتردد على صالونها وتوثقت علاقته بها [٥] مما كان له أثره العميق فى حياة الشيخ نفسه ويشهد على ذلك خطاب لها بالفرنسية أرسلته إلى الشيخ ليس عن طريق البريد ولكن عن طريق رسول تقول فيه [٦] :

---

(١) أوراق محمد فريد ، ص ١٣٤ ، ومذكرات سعد زغلول جـ ١ ، ص ٦٤ .

(٢) الرائد المصرى : العدد ٢٨ فى ١٨ ديسمبر ١٨٩٦ ، ص ٢٩٣ ، تحت عنوان « البرنسيس نازلى هانم » .

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، جـ ١ ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٥٠ هـ ، ص ٨٩٧ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، جـ ١ ، ص ٤١٨ ، ٨٩٤ .

(٦) نشر هذا الخطاب الاستاذ عثمان أمين خلال تعليقه على مقال الشيخ مصطفى عبد الرازق « أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده » ، موضحا أن الخطاب كتب على غلافه بالعربية «عزتلو شيخ محمد عبده حضرتلرى» الرسالة ، العدد ١٩٠ فى ٢٢ فبراير١٩٣٧ .

Cher Ami

Je vous prie de venir me voir ce soir aprés 7 h.

Je regrette d'avoir manqué votre visite hier.

Votre amie sincére

Nazli

وترجمته :

صديقى العزيز

أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة . .

أنا أسفة إذ فاتتنى رؤيتك أمس ..

صديقتك المخلصة

نازلى

ومعنى ذلك أن أمر الصداقة بين الشيخ والأميرة أصبح واضحا ، وأن الأميرة خصت الشيخ بمكانةٍ مميزةٍ وأنها كانت تُجِلّهُ .

ومع أن الشيخ محمد عبده لم يكن راضيا عن اشتغال الأميرة بالسياسة ، وأنه كان يفضل لها أن توجه عنايتها بتأسيس أعمال تفيد فى تهذيب البنات وتعليمهن فإنه لم يستطع اقناعها بذلك ، ومع أنه كان لا يجاريها فى أرائها السياسية ويفضل الصمت على مجاراتها فى أحاديثها فإنها كانت تغضب منه وتطالبه بالاشتراك فى الحديث ، وعندما يتحدث تتعارض أراؤه مع أرائها لدرجة أنه قال لها يوما « إن سكت لا أرضيك وإن تكلمت لا أرضيك فكيف العمل ؟ » (١) .

---

(١) محمد رشيد رضا: المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٨٩٥ .

وعلى أى حال فقد استطاعت الأميرة أن تؤثر فى أفكار الشيخ محمد عبده فى وجوه ثلاثة أوضحها الشيخ مصطفى عبد الرازق وهى :

١ - على الرغم من عداوة الشيخ محمد عبده للانجليز وكتاباته الملتهبة ضدهم [١] خاصة فى جريدة العروة الوثقى التى أصدرها بالاشتراك مع استاذه الأفغانى فى باريس فقد استطاعت الأميرة عن طريق علاقتها الوطيدة به أن تخفف من عداوته لانجلترا وأن تقربه من صديقها « كرومر » لدرجة أن تلاشت من صدره عداوة انجلترا ، وأصبح يجهر فى كتاباته بدورها فى تنظيم أمور مصر ، كما أعلن عن مهادنته للانجليز [2] موضحا أن اصلاح الأمة لا يتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة ، وتكوين أفرادها علميا وفكريا ، وأنه لا يمانع فى الاستعانة بالانجليز على نوال بعض الاصلاح ولو أدى ذلك إلى معاداة الخديو [3] .

يضاف إلى ذلك أنه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث وأباح للعقل المصرى أن يفكر غير متحرج ولا متحفظ فى أمور الدين والسياسة والاجتماع ، وعرض كل شىء للنقد ، واستخلاص وجه الحق فيه رغم أى قيود أو ظروف [4] .

٢ - المامه فى كتاباته بموضوعات لم يتعرض لها قبل تعرفه على الأميرة ففى مقاله « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » قام بتقريظ فوائد حفظ هذه الآثار وأجاز للرسامين عملها بقوله « إن الرسم ضرب

---

(١) Blunt : secret History of the English occupation in Egypt p. 489 .

(٢) Safran, N : Egypt in Search of political community, Oxford university press, 1961, p. 62 .

(٣) أوراق محمد فريد ، ص ١١٩ .

(٤) الدستور ، العدد ١٣٣١ فى ١٩٤٩/٩/٢٣ تحت عنوان الدكتور طه حسين ، يلخص لأهل الباكستان حياتنا العقلية فى مصر .

من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى » [١] وقوله « وأما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك » [٢] وقوله « فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها » [٣] .

وهذا الكلام ما كان يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه .

٣ – أن أسلوبه الكتابى فى أواخر أيامه كان يميل إلى الدعابة والخفة كما فى الفصول التى كتبها عن سياحاته [٤] .

ومع أننا نضيف إلى ما ذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق أن عناية الشيخ باتقان الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة فإننا نرى أن المبالغة فى تأثير الأميرة على الشيخ محمد عبده إلى هذا الحد قد يبعدنا عن الموضوعية بعض الشيء .

حقيقة أن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم ووقف للانجليز بالمرصاد وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى وغيرها هجوما عنيفا وأنه بعد أن قابل الأميرة تغير موقفه تجاههم ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخة وأن التجارب حنكته وصقلت أفكاره . حقيقة أن بعض عظماء الرجال برزت عبقريتهم فى منبت العطف والتأثير النسائى ، وأن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة ، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسيه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه ، وطالب الحاكم باصدار دستور عادل لحكم بلاده .

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٩٨ – ٤٩٩ .
(٢) نفسه ، ص ٤٩٩ .
(٣) نفسه .
(٤) مصطفى عبد الرازق : أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده .

وعلى أى حال فإن تأثير الأميرة على رجالات مصر لم يتوقف عند الشيخ محمد عبده . بل تعداه إلى آخرين فقد لعبت دورا مهما فى حياة سعد زغلول وقاسم أمين كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره .

وعن سعد زغلول فقد توثقت علاقته بالأميرة عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده فاتخذت منه وكيلا لها وأتاحت له فرصة الاختلاط بأوساط الطبقة الارستقراطية وبالعديد من الشخصيات الهامة ، وشجعته على تخطى الحاجز الاجتماعى ، ونصحته بدراسة الحقوق وضرورة تعلم الفرنسية وقربته إليها لدرجة أن ترددت الشائعات بقرب زواجه منها [(١)] . ومن خلال صالونها التقى سعد بأيفلين بارنج (لورد كرومر) وبفضل مساعيها لدى كرومر عين سعد مستشارا فى الاستئناف [(٢)] ، كما كانت جواز المرور فى اقترانه من صفية فهمى كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس مجلس النظار وأكثر المسئولين المصريين تأييدا للانجليز وذلك فى السادس من فبراير ١٨٩٦ [(٣)] ثم رشحته بقوة وتصميم ليكون أول وزير مصرى للمعارف مع أنه من أسرة فلاحية مصرية .

صحيح أن تزكية نازلى وحدها لم تكن لتكفى فى التأثير على المعتمد البريطانى كرومر لولا كفاءة سعد ، ولكن من أين عرف كرومر سعداً ؟ إنه تعرف عليه فى صالونها [(٤)] .

وبالنسبة لقاسم أمين فقد استطاعت الأميرة نازلى تغيير مفهومه

---

(١) عباس حافظ : بطل النهضة المصرية الكبرى ، سعد زغلول باشا ، القاهرة ، د. ت ، ص ٦٣ .

(٢) أوراق محمد فريد : المجلد الأول ، ص ١١٩ .

(٣) يرفض عباس العقاد هذه الفكرة ، ويذكر أن الأميرة لم تكن ترتاح إلى هذا الزواج ولم تساعد على اتمامه .
انظر : سعد زغلول سيرة وتحية ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٨ .

(٤) مذكرات سعد زغلول ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

عن المرأة ، فبعد أن عاد من فرنسا إلى مصر كتب كتابا بالفرنسية عنوانه Les Egyptian (المصريون) للرد على مطاعن الدوق الفرنسى داركور Duc de Darcourt القاضى بالمحاكم المختلطة (١) وفيه دافع عن الحجاب ، وندد بالداعيات إلى السفور واشتراك المرأة فى الأعمال العامة ، وهاجم المرأة المصرية وقلل من قدرها ووصفها بالضعف والانغلاق ، وطالبها بالقبوع فى المنزل والاقتصار على شئون الدار ، وعدم الخوض فى الحياة العامة خاصة وأن مصر لا تزال تعيش فى حالة من التخلف . يضاف إلى ذلك أنه أخذ فى كتابه سلسلة من المقالات فى جريدة « المؤيد » كانت تحت عنوان « أسباب ونتائج واخلاق ومواعظ » (٢) .

ولما كانت الأميرة نازلى تمثل النهضة النسائية المصرية فى ذلك الوقت فقد رأى محمد عبده وسعد زغلول وآخرون أن ما كتبه قاسم أمين يعد تعريضا جارحا بالأميرة ، ونتيجة لذلك كلفوا « فارس نمر » صاحب المقتطف بالرد عليه فبدأ كتابه سلسلة من المقالات لنقد هذه الكتابات لم تنل رضاهم ، ولما طالبوه بالتوقف عن الكتابة طلب منهم الحصول على الاذن بذلك من الأميرة .

وقد توسط سعد زغلول لدى الأميرة فى هذا الشأن ثم أحضر قاسم أمين للاعتذار لها فقبلت اعتذاره وبعد ذلك أخذ يتردد على

---

(١) وضع كتابا عن مصر ونشر فى باريس عام ١٨٩٣ تحت عنوان L'Egypte et Les Egyptiens نتقد فيه المجتمع المصرى انتقادا لاذعا ، وصور فيه حياة مصر والمصريين بألوان قاسية مس فيها عاداتهم ودينهم .

(٢) نشرت فى الفترة بين عامى ١٨٩٤ ـ ١٨٩٨ وتضمنت تسعة عشر مقالا دارت حول ثلاثة عناصر فالمقالات السبع الأولى كانت حول المال ، والمقالات السبع الثانية كانت حول أسس التربية السليمة . أما المقالات الخمس الأخيرة والتى أسماها أخلاق ومواعظ فقد دارت حول موظفى الدولة . وقد طغت فكرة التربية على كل هذه المقالات .

صالونها فرآها سافرة تناقش محمد عبده وعلى يوسف والمويلحى وغيرهم مناقشة عميقة فى أمور مصر الداخلية وفى الشئون العالمية [١] كما وجد فيها إمرأة تدافع عن نساء مصر ، وتجادل الكتاب الأوربيين جهاراً دون حرج مما جعلها تزداد فى عينيه اقتناعا وارتفع مقامها لديه مما جعله يغير رأيه ويتحول من النقيض إلى النقيض ، ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها [٢] . وبدأ يكتب فى المؤيد مدافعا عن حقوق المرأة وضرورة تحريرها من الجهل والتخلف وأن تخرج من قوقعتها كما طالب بسفورها وخروجها إلى العمل إذا اضطرتها الظروف [٣] بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب [٤] . وقد جمعت هذه المقالات بتأييد ومباركة نازلى فاضل . والشيخ محمد عبده فى الكتاب المسمى « تحرير المرأة » الذى صدر فى عام ١٨٩٩ وتسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق ، وإثارة العديد من المعارك الفكرية الضارية .

وقد أكد دور نازلى فاضل فى اصدار هذا الكتاب ما ذكره داود بركات فى مقال له بالأهرام أن قاسم أمين هدف من تأليف كتاب تحرير المرأة إلى إرضاء نازلى فاضل وتصحيح خطئه فى حقها [٥] كما أكد دور محمد عبده ما رددته « الجريدة » بأن محمد عبده كان صاحب هذه الفكرة [٦] . وما ذكره صاحب الأعمال الكاملة لقاسم أمين حول ما تردد من أن الشيخ محمد عبده شارك فى تأليف هذا الكتاب ثم وضع على

---

(١) السياسة الأسبوعية فى ١٩٢٨/٥/٥ مقال للاستاذ عبد العزيز البشرى .
(٢) د. ماهر فهمى حسن : قاسم أمين ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١٧ .
(٣) نشرت أول هذه المقالات فى ١٥ مايو ١٨٩٩ ، والثانية فى ٢٠ مايو ، والثالثة فى ٢٨ مايو .
(٤) مجلة الحديث ، يناير ١٩٣٩ ، ص ٨٨ ، ٩٢ .
(٥) الأهرام فى ٤ مايو ١٩٢٨ .
(٦) الجريدة فى ٢٦ ابريل ١٩٠٨ .

غلافه اسم قاسم أمين تجنبا للحرج والعاصفة الضارية التى يمكن أن تهب عليه خاصة وأنه الشيخ الأزهرى الكبير الذى كان يحمل منصب مفتى الديار المصرية [١] . وقد استند من ردّدَ هذه المقولة على أن الأمور الدينية التى عالجها الشيخ محمد عبده فيما يختص بحقوق المرأة قد تناولها قاسم أمين بالبحث فى الناحية الاجتماعية ، كما أكدوا أن آراء قاسم أمين لقيت تأييداً تاماً عند الشيخ محمد عبده واستندوا فى ذلك إلى الاجتماع الذى حدث فى جنيف فى عام ١٨٩٧ بين الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين وأخذ الأخير يتلو على الامام بعض فصول من كتابه عن تحرير المرأة فكان يوافق على ما فيها ويضيف إليها بعض الفقرات [٢] . وإلى جانب ذلك استندوا إلى ما ذكره أحمد شفيق فى كتابه « أعمالى بعد مذكراتى » إلى رغبة قاسم أمين فى ألا يصدر الكتاب باسمه فقط بل بالاشتراك مع آخرين وأن قاسم أمين عرض عليه أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب ولكنه امتنع عن تلبية طلبه لسببين أولهما عمله الحكومى الذى لا يسمح له بالتفرغ لمسألة يعلم أن تأليف كتاب فيها لا ينتج الثمرة المرجوة . وثانيا : يقينه بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة [٣] .

وعلى أى حال فعلى الرغم من استبعادنا فكرة اشتراك الشيخ محمد عبده فى تأليف هذا الكتاب خاصة وأن اسلوبه الانشائى أقرب إلى أسلوب قاسم أمين منه إلى أسلوب محمد عبده فإننا لا نستبعد أن يكون الشيخ قد أضاف إليه بعض الفقرات والاقتباسات المأخوذة من أمهات

---

(١) قاسم أمين : الأعمال الكاملة - تحقيق محمد عمارة - بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٣٣ .

(٢) درية شفيق وابراهيم عبده : تطور النهضة النسائية فى مصر من محمد على إلى الفاروق ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٤٥ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) انظر أعمالى بعد مذكراتى ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٣٥٢ .

الكتب فى الفقه الاسلامى خاصة وان ثقافة قاسم أمين الدينية لم تكن قد بلغت الاحاطة بمثل هذه الأمور الفقهية .

وهكذا يتضح أن فكر قاسم أمين كان قد تطور وتغير على يد هذه الأميرة ومن خلال صالونها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن كتاب تحرير المرأة كان انتصارا لأفكارها ، وارضاء لتطلعاتها ، وترديدا لما كان يدور فى حجرات صالونها .

وبالنسبة لعلاقة الأميرة نازلى بمحمد فريد فلم تكن طيبة فى أول الأمر حيث هاجمها على صفحات الجرائد لتمجيدها للانجليز ثم لآرائها المعادية للمصريين حيث تم الصلح بينهما وقابلها فى تونس حيث دعته فى دارها بحمام الأنف وبالمرسى وأكرمته وقد قال عنها فريد « كنا على طرفى نقيض فى السياسة ولكنها كانت تحترم أرائى » ولكن هذه الصداقة لم تدم بينهما طويلا خاصة وإنها كانت تكره مصطفى كامل وتتهمه بالمتاجرة فى الوطنية ، ونظرا لاختلافهما حول هذه النقطة توقفت عن الهجوم على مصطفى كامل فترة ولكنها بعد أن علمت بمرضه دعت عليه بالموت أمام فريد فغضب منها وقاطعها ولم يقابلها بعدها قط على الرغم من صلته المتينة بها [١] ومشاركتها له فى أفراح أسرته [٢] .

لقد تعرض الكثيرون للأميرة نازلى بالتشكيك بحجة أنها كانت انجليزية الهوى والتفكير ، وأن كبار الانجليز فى مصر كانوا من رواد صالونها ومن أصدقائها الخصوصيين [٣] ولأن كلمتها كانت ذات تأثير لدى قصر الدوبارة ، ومع كل ذلك وعلى الرغم من نقدها للمصريين

---

(١) أوراق محمد فريد : الجزء الأول ، ص ١٣٤ .
(٢) حضرت على سبيل المثال زواج ابنته فريدة ، وابن أخته أحمد كمال .
(٣) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية حتى سنة ١٩١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ، ص ٣٥ .

فهل يمكن أن نتجاهل أن الشيخ محمد عبده كان يحترم عقليتها ويرى فى صالونها خيرا وأنها خدمت الوطنية المصرية بقصد أو بغير قصد من خلال معاضدتها لسعد زغلول [١] وأنها كانت من أوائل من شاركن فى حركة التنوير الفكرى وايقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسر الراقية وأنها بخيرها وشرها اشتركت فى صنع بعض زعماء مصر أمثال سعد زغلول وقاسم أمين . ففى صالونها تم صقل الزعامات المصرية وتطوير بعض مفاهيمها فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين حال المرأة وتلافى ما فى حياتها البيتية من النقائص إلا بعد مقابلته للأميرة وتأثره بأفكارها ، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة فى قهوة متاتيا إلا بين الباشوات فى صالون الأميرة ، وبعد مصاهرته للطبقة الارستقراطية .. ولم تتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدع إلى تحرير المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة التى تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة فى ثقافتها ووطنيتها .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة التى كانت تفوق أكثر أهل عصرها من أبناء الشرق فى الاشتغال بالسياسة والاهتمام بمسائل بنات جنسها أن تسوس مواهب رجالات مصر وأن تؤدى دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية وأن تهيأ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر حتى وافاها الأجل فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩١٣ [٢] .

* * * * *

---

(١) الهلال : عدد سبتمبر ١٩٨٢ ، مقال للدكتور السيد فهمى الشناوى ، تحت عنوان صالون نازلى هانم ، ص ٤٦ .

(٢) المقتطف ، جـ ٤ ، يناير ١٩١٤ ، ص ٩٩ .

٣ - المقاهي والصالونات الأدبية وأثرها في تاريخ مصر من نهايات القرن التاسع عشر وحتي منتصف القرن العشرين

ترتبط هذه الدراسة أكبر الارتباط بتاريخ المجتمع المصرى فهى معرض بديع لتاريخ مصر السياسى والاجتماعى والثقافى خاصة وأنها تمت بأكبر الصلات للعديد من زعماء مصر ومفكريها الذين كانوا يتخذون من المقاهى والصالونات منتديات لهم يجتمعون فيها لمناقشة أمور الوطن والحلول الكفيلة للتخلص من مشاكله . كما أنها تتصل بتاريخ العادات الشعبية بتراثها الكبير الذى خلفته لنا الأجيال السابقة ، وتكشف عن الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية التى شكلت وجدان الشعب المصرى ، وشخصيته المميزة على مدى العصور والتى كانت ذخيرة حية ، ومنطلقا للأجيال الحاضرة التى رأت فيها مصر بعيون صادقة جمعت بين الأصالة والمعاصرة .

وإلى جانب ذلك فإن هذه الدراسة تتعرض لحياة الأفراد العامة ، كما تتعرض لبعض الظواهر الأخلاقية والثقافية لدرجة أنها قدمت لنا المجتمع المصرى فى أثوابه المختلفة زاهية وقاتمة بل وبالية فى أحيان أخرى .

ويبدو أن المؤرخ تقى الدين المقريزى (١٣٦٤ - ١٤٤١ م) كان أول من فطن إلى أهمية هذا الموضوع فقضى أعواما طويلة من حياته فى خططه التى تعد من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الاسلامية ، والتى لم ينس فيها ذكر المقاهى والمنتديات التاريخية ، فقدم لنا مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية الفريدة .

ثم جاء على مبارك ، وسار على منواله فقدم « الخطط التوفيقية » تلك الموسوعة الهامة التى أخرج فيها لمصر المعاصرة ـ من غمر الأحقاب البعيدة ، والآثار المنسية والأطلال الدارسة ـ صوراً فياضة واضحة مزجت الماضى بالحاضر (١) .

وقد أحصى على مبارك عدد المقاهى فى القاهرة وحدها فى عام ١٨٨٠ م فكان عددها ١٠٦٧ مقهى ، وكان أكبر عدد منها فى منطقة الأزبكية حيث بلغت ٢٥٢ مقهى ، ثم جاءت منطقة بولاق فى المرتبة الثانية حيث بلغ عدد المقاهى بها ١٦٠ مقهى وبالنسبة لمنطقة الجمالية فكان يوجد بها ١٤٢ مقهى أما منطقة عابدين فقد بلغ عدد المقاهى بها ١٠٢ مقهى .

وربما ارتبط احصاء تعداد هذه المقاهى بالتوزيع الجغرافى للسكان ، والتركيبة الاجتماعية فى ذلك الوقت فالازبكية مثلا ارتبطت بأنها كانت مكانا للترفيه ، ومن هنا تزايد عدد المقاهى فى هذه المنطقة خاصة حول بركة الأزبكية حيث كان يجتمع الأهالى ، وبالنسبة لبولاق فكانت شبيهة بالأزبكية نظرا لوقوعها على النيل حيث كان يجتمع الناس حوله ، أما بالنسبة للجمالية فقد كانت ملتقى الأسواق فى ذلك الوقت ومن البديهى تواجد المقاهى بها .

وقد انقسمت المقاهى إلى قسمين مقاهى بلدية ، ومقاهى أفرنجية ، وكانت هناك أيضا مقاهى للنوبيين تعد بمثابة وكالات أنباء بالنسبة لهم فى القاهرة يعرفون خلالها أخبارعائلاتهم (٢) كما كانت

---

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣١ ، ص ٧٠ - ٧٣ .

(٢) عبد المنعم شميس : قهاوى الأدب والفن فى القاهرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٩١ ، ص ١٥ .

توجد مقاهى للصعايدة ، ومقاهى أخرى مخصصة لأصحاب الحرف والمهن المختلفة .

وإلى جانب هذه المقاهى أو تلك المنتديات الشعبية سنتعرض للمنتديات الارستقراطية أى الصالونات الأدبية تلك التى كان يؤمها فئة رفيعة المستوى من كبار رجالات مصر الذين نقشت أسماؤهم بحروف بارزة فى سجلات الفكر المصرى المعاصر ، وفيما يلى نعرض للأدوار التى لعبتها المقاهى ثم نتبعها بالصالونات الأدبية .

اولا . المقاهي :

١ - *الدور الاجتماعي والفكري* :

لقد ضمت المقاهى والمنتديات خلال هذه الفترة مزيجا مختلفا من طبقات المجتمع المصرى فكان منها الأزهرى المعمم ، ومنها الأفندى المطربش ، ومنها التاجر والموظف ، ومنها أرباب الحرف والأعمال اليدوية، كما كان منها بعض أفراد الطبقة السفلى الذين يغرمون بالسخرية من عباد الله وكان لهؤلاء وهؤلاء ضروبا شتى من الطباع ، وألوانا متباينة من التصرفات بعضها بغرض التسلية والتسرية وبعضها الآخر بهدف كسب الرزق والاحتيال عليه ، بل وبعض منها بغرض كسب الاعجاب ، وهناك ما كان غرضه الهرب من الحياة الزوجية والبعد عن حياة الأسرة ، بل كان هناك من يذهب لتناول المشروبات وقرقرة الشيشة وتدخين النرجيلة التى كان يهيئها صاحب القهوة ، ومنهم من كان يذهب للاشتراك فى جلسات الحشيش والقمار (١) ومنهم من كان يقوم بممارسة الألعاب المسلية مثل لعب الورق والشطرنج والنرْد (٢) ، وغيرها

---

(١) ادوارد وليم لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٠ ، ص ٢٤٨ .

(٢) اللعبة المعروفة بالطاولة .

مع أصدقائه بغرض قضاء بعض الوقت معهم ينفحهم فيه من الأحاديث حلوها ومرها ، ومنهم من يذهب إليها لمشاهدة القرداتية والحواة الذين يقدمون رقصات شعبية ساخرة فى تلك الأمكنة ، بالاضافة إلى أصحاب الثعابين الذين يجعلونها ترقص على أنغام المزامير ، ومنهم من يذهب إليها للانصراف عن مشاكله الحقيقية إلى غيبوبة القصص الخرافية والحكايات الوهمية فيستمع إلى الأدباتية وقصص القصاصين بل وفى أحيان أخرى يستمعون إلى شعراء الربابة الذين يقصون قصص القدماء والسير الشعبية ذات المضمون الأدبى المؤثر مثل سيرة بنى هلال ، وأخبار النبى أيوب ، وقصة سيف بن ذى يزن [1] ومنهم من كان يذهب إليها للترفيه عن نفسه بمشاهدة عروض للعرائس المتحركة « القراجوز » وعروض خيال الظل ومنهم من كان يرى فيها تجمعاً يؤمه أهل الفكر وأعلام السياسة والصحافة ومجلسا للدعابة البارعة والروح المصرية المرحة ، ومقصداً للأدباء والشعراء وأصحاب المواهب من الشبان الذين تألق نجم بعضهم ، وأصبحوا يتبارون بمساجلاتهم ويكتبون وينظمون ويتناقشون فى علومهم وفنونهم وتقوم المجادلات بينهم حول المعركة بين القديم والجديد أو فى المقارنة بين حافظ وغيره من الشعراء خاصة بعد أن ضاقت البيوت عن استضافة مثل هؤلاء الأصدقاء ، وتلك المجموعات الكبيرة من الناس ذات الأهواء المختلفة والمواهب المتعددة ، وبذلك أصبحت المقاهى والمنتديات تلعب دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية المصرية ، خاصة وأنها كانت مجالا لاطلاق النكت العذبة ، والأحاديث الأدبية ، والفكاهة الحلوة ، والقفشات الطريفة ، والدعابات اللطيفة بين

---

(١) محمد عمر : حاضر المصريين أو سر تأخرهم ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ١٩٠٢ ، ص ٢٦٠. ولتفاصيل ذلك انظر مجلة التنكيت والتبكيت فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ١٠ - ١١ تحت عنوان « تخريفة الجنون فنون » حيث ندد النديم بالجهال من شعراء الربابة الذين يحفظون ما لا يفهمون .

رجالات الفكر والسياسة والأدب ، والتى كانت تستمر طويلا على ألسنة العامة من الناس ، والتى لو كانت قد جمعت فى كتب لجاءت لنا بكم كبير من الأسفار والمجلدات الأدبية والعلمية والترويحية المفيدة التى كانت تشكل ذخيرة رائعة لهؤلاء الرواد العظام فى كل فن من الفنون .

وإلى جانب ذلك فقد لعبت المقاهى والصالونات دوراً هاماً فى تكوين مجموعة من أبرز المفكرين الذين قادوا الحركة الثقافية فى مصر ، وكان كل مقهى منها عبارة عن حياة زاخرة بالأفكار ، والأحداث والشخصيات ففى مقاهى الاسكندرية المنتشرة فى أزقة أحيائها وحول الميناء نشأ الأديب والسياسى عبد الله النديم الذى أضحك الناس وأبكاهم حيث اختلط بالحمالين والسقائين وأصحاب المزاج الذين يسخرون بكل شيء ، ومن كل شيء سخريةً موجعةً كأنها السياطُ التى تجلدُ ظهر المجتمع .

لقد تعايش النديم مع هؤلاء واستمع إليهم وشاركهم السخرية من أوضاع المجتمع المقلوبة وكانت كتاباته فى مجلته التنكيت والتبكيت من أروع الأدلة على ذلك فتحت عنوان « تخريفة الجنون فنون » أعطى النديم صورة كاريكاتورية لجو مقهى مصرى جلس عليه أحد المحتالين يقرأ أكاذيب سماها قصة عنترة فاجتمع إليه الكثير من الرعاع والهمج الذين ولعوا بسماع الأكاذيب والخرافات . وقد دعا النديم هؤلاء إلى الانتباه إلى مشاكلهم الحقيقية بدلا من ضياع وقتهم فيما لا ينفعهم [1] ، وذلك باسلوب واقعى جذاب يحمل بين دفتيه التنكيت والتبكيت معا .

وإلى جانب ذلك تعرض النديم لتجربته الشخصية مع الأدباتية الذين كانوا يمرون على المقاهى فذكر أنه كان جالسا فى مقهى الصباغ المجاور للمسجد الأحمدى بطنطا ذات مرة فمر عليه أحد

---

(١) التنكيت والتبكيت : العدد الأول فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ١٠ – ١١ .

الأدباتية المحترفين بطبلته وطرطوره ووجهه المدهون بالجير يبغى منه قرشا بقوله :

أنعم بقرشك يا جندى	وإلا إكسنا أمال يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى	بقى لى شهرين طوال جيعان

ولما كان جيب النديم خاويا فى ذلك الوقت ، ولا يملك قوت يومه فقد تحركت فيه أريحيته ورد مرتجلاً :

أما الفلوس أنا مديشى	وإنت قلت لى : أنا ما أمشيشى
يطلع علىّ حشيشى [١]	أقوم أملص لك لودان !

وتستمر المبارزة نحو ساعة ينهزم بعدها الأدباتى أمام النديم [٢] .

وعن أهم مقاهى القاهرة خلال تلك الفترة مقهى الفيشاوى القريب من مدخل خان الخليلى الضيق من جهة الحسين حيث جلس معظم أدباء ومفكرو مصر وصحفيوها على اختلاف عقلياتهم وتباين ثقافتهم حول موائد الشاى الأخضر والأحمر ، والشيشة العجمى كل مع من يأنس إليه ، فنجد منهم الشيخ الأزهرى القح ، والأديب الذى ملأ جعبته بالنوادر ، والحديث عن العقاد والمازنى وهيكل وطه حسين والزيات

---

(١) أى يخرج عن صوابه لأن الحشاش يتصرف غالبا تصرفات غير طبيعية .

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ ، ص ٧٨ .

ومن الفنون الشعبية التى كانت معروفة فى مقاهي القاهرة أيضا فن القافية وهو فن يقوم على مباراة كلامية بين شخصين يطلب أحدهما من صاحبه أن يدخل معه فى قافية ، وعندما يقول الأول كلاما لاذعا فى وصف صاحبه يقول له الآخر (ايش يعنى) أى ماذا تقصد فيرد عليه الشخص الآخر ردا لاذعا أيضا ، ومن شروط هذه المباراة ألا يغضب أحد الطرفين ، وقد اشتهرت قهوة بجوار جامع السيدة نفيسة بهذا اللون من فنون المقاهى . ومن المعروف أن الفنان نجيب الريحانى بدأحياته التمثيلية بتقليد هذا اللون من الفنون .
انظر : عبد المنعم شميس : مرجع سابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

وأحمد أمين وغيرهم والصحافى الذى يتحدث عن نجوم السينما والمسرح ويتطرق إلى يوسف وهبى ، وجورج أبيض ، وأمينة رزق .

وكانت السهرات الطيبة فى هذا المقهى تكثر فى شهر رمضان ، فتستبدل أكواب الشاى بأكواب الزبيب والمكسرات ، كما يتزايد فى حلقات الفيشاوى رجال السياسة والأدب والصحافة . فنجد لطفى السيد باشا ، وهيكل باشا ، وفكرى أباظة ، ولطفى جمعة والكثيرين من أساتذة الجامعة ومشايخ الأزهر وأعضاء مجلس النواب كل منهم يطلب السمر ، والاستعانة على السهر حتى السحور . وبعد أن يأتى العيد يعود الوضع إلى مستواه ، ولا يبقى بالفيشاوى إلا الذين يعكفون عليه من الصحفيين والأدباء والشعراء [١] .

ونذكر مقهى المضحكخانة بالسيدة زينب حيث التقى أهل الفكر والأدب يتشاورون فى أمور وطنهم ، ومن هؤلاء نذكر أمين فكرى ، وأحمد سمير ، والشيخ حسن الآلاتى [2] .

وفى حى الحلمية كان هناك مقهى يرتاده الأدباء والمفكرون واختلط بين جدرانه الأدب بالسياسة ، وكان من رواده حسين رشدى ، وأحمد شوقى ، وحفنى ناصف ، وحافظ ابراهيم ، والمازنى [٣] .

وفى باب الخلق ذلك الميدان الذى يمر به الطريق الواصل الى الحسين ، والسيدة ، والامام ، وفيه كانت تقام دار الكتب وجدت قهوة باب الخلق التى كانت منتدى للصحفيين والأدباء قضوا به العديد من السهرات العامرة ، والمجالس الحافلة التى حملت العديد من الذكريات

---

(١) الرسالة ، ١٩٣٩ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) جمال الدين الرمادى : عبد العزيز البشرى ، القاهرة ، أعلام العرب ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٥ .

(٣) الرسالة : العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩ .

فخلال عمل حافظ ابراهيم بدار الكتب كان ينسل إلى هذا المقهى مع صحبه وإخوانه أمثال امام العبد ، وصاحب الصاعقة ، ومنشىء الحمارة يقطع وقته فى جد القول وهزله [١] .

وكان يجلس فى هذا المقهى الشيخ محمد المهدى ، وحفنى ناصف والشيخ محمد الخضرى ، وبعض طلاب الأزهر ، ومدرسة المعلمين الناصرية يتحدثون فى الدين والسياسة ، واللغة والأدب كما ارتاد هذا المقهى طه حسين ، وأحمد حسن الزيات ، وبعض المتمردين على حواشى الأزهر ومتونه ، واستمر طه حسين يرتاد هذا المقهى ، وبعد أن تمرد على اخوانه راح ينعتهم بأدباء باب الخلق [٢] .

وفى مقهى الكتبخانة المواجه لمبنى دار الكتب بشارع محمد على كان المكتب غير الرسمى لشاعر النيل حافظ ابراهيم فكان لا يصعد مكتبه فى دار الكتب إلا قليلا ، وكانوا يحضرون له الأوراق الرسمية التى يجب وضع توقيعه عليها فى هذا المقهى وهو يشرب القهوة ، ويدخن الشيشة ، ويتلو شعره لولى الدين يكن ، وخليل مطران ، وفؤاد الصاعقة وغيرهم ليتبين أراءهم فيه ، كما كان يتعرض لأحوال مصر الاجتماعية مازجا ذلك بالنوادر والفكاهات ، ومن كان يطعن فى فنه فذلك الكسر الذى لا يجبر ، وذلك الذنب الذى لا يغفر .

وفى مقهى ايزافيتش بميدان التحرير توافد الفنانون والمفكرون والمثقفون من كل لون فقد تردد عليها المؤرخ محمد صبرى السربونى والمهندس حسن فتحى ، وأبو بكر سيف النصر الذى كان يشبه الملك فاروق كثيراً ، وتوافد عليها رجال الحركة الشيوعية ، كما توافد عليها

---

(١) محمد كامل جمعة : المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) الرسالة : العدد ٣٠٤ فى أول مايو ١٩٣٩ تحت عنوان « الأندية الأدبية فى مصر ، ص ٨٦٦ .

المحامــون ، وكبـار الموظـفين وأعـيان الريـف الذين كـانوا يتـرددون على وزارات الحكومة ومصالحها فى حى لاظوغلى .

وفى مـقـهى عـبد الله التى توسطت يـوما مـيدان الجـيـزة تركـزت حلقات الأدباء والمثقفون فى أواخـر الخمسينات ، واجـتمع فيـها المفكرون والأدباء يشـربون الشـاى والقـهـوة ويقـرأون لبـعضـهم البـعض أخـر مـا توصلت إليه قرائحهم من انتاج ، وتدور بينهم فى بعض الأحيان المعارك الفكرية التى شكلت مـلامح ذلك الوهج الذى يطلق عليه الثقافة المصرية الحديثة . وقـد ضـمت هذه المجـموعـة رجـاء النـقـاش ، ولويس عـوض ، ومـحمـود السـعدنى ، وصلاح عـبد الصـبور ، ونعـمان عـاشـور ، ورشـاد رشدى ، وأحمد رشدى صالح وغيرهم .

وفى مـقـهى صـان صـوصـى (بلا همـوم) تركـزت جـلسـات رواد الأدب الشـعـبى حـيـث ارتبط هذا المقـهى برواد الفنـون والآداب الشـعـبـية وكـان رشـدى صـالح ، ونعـمـان عـاشـور ، وعلى الـراعى من رواد هذا المقـهى ، والثـلاثة يمثلون روافـد هامـة فى دراسـات الفـولكـلور ، وفن المسـرح ، وفى النقد الأدبى .

أمـا مقـهى انديانا تـلك المقهـى المشرفـة على مـيدان الدقى فـقد كـان روادها من المثقفين الذين خرجـوا من بيئة شـعبـية وتمكنوا بعلـمهم من احتلال مـراكز اجتمـاعية مرمـوقة ، وأصبحـوا نجوما للصـحافة والأدب ، ومن هنا فقد اهتموا بمشاكل الطبقة الوسطى بصراعاتها وبنزوعها نحو التسلق وبأزماتها الاجتماعية الخاصة [1] .

هذا عن الدور الفكرى والاجتماعى للمـقاهى والذى عبر عن وجدان الشعب المصرى وكان بمثابة مراكز اشعاع مضيئة فى كافة أنحاء مصر ، حضرها وريفها . أما عن الدور السياسى فهذا ما سنعرض له .

---

(١) سمير سرحان : على مقهى الحياة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨ ، ص ١٣ وما بعدها .

٢ - *الدور السياسي* :

ومن المقاهى التى كان لها دورٌ سياسىٌ : قهوة البوسطة التى تقع فى ميدان العتبة الخضراء بالقرب من مصلحة البريد بالقاهرة ، والذى تغير اسمها بعد ذلك وأصبحت تعرف بقهوة « متاتيا » إذ كان يؤمها لفيف كبير من أقطاب الفكر والسياسة .

وإلى جانب ذلك فقد ارتبط هذا المقهى بنشاط جمال الدين الأفغانى فى مصر ذلك النشاط الذى يعد فصلا هاما من فصول الفكر السياسى فى تاريخ مصر الحديث . فكان الأفغانى الذى حمل بين جنباته أفكارا لتحريك الشعور الوطنى والنهوض بالاسلام والمسلمين والوقوف فى وجه الاستعمار والمستعمرين ، يطيب له الجلوس فيها ، عصر كل يوم إلى ما بعد المغرب حيث كان يلتف حوله طلابه ومريدوه على هيئة نصف دائرة يناقشونه فى أدق المسائل وأعقد الأمور [1] ويتعلمون منه أهمية الاصلاح الاجتماعى وأهمية الخطابة والصحافة فى ترقية الأمم حتى أصبحوا فيما بعد من أعلام النهضة المصرية ومن هؤلاء : الصحفيين الشاميين ، أديب اسحق ، وسليم النقاش ، والشاعر محمود سامى البارودى الذى لعب دوراً رئيسيا فى الثورة العرابية بعد ذلك ، والشيخ محمد عبده ذلك الأزهرى المستنير ، الذى حاول التوفيق بين السلفية والتحديث ، وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والرجل الثانى بعد أحمد عرابى ، وسعد زغلول ، الذى قاد ثورة ١٩١٩ ، وأصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب ، ويعقوب صنوع رائد المسرح العملاق والصحفى الذى أطلق قلمه دون تقيد بقانون أو رقيب .

وخلال الجلسات فى هذا المقهى لم ينقطع الأفغانى عن شرب الشيشة وتوزيع السعُوط بيمناه والثورة بيسراه حيث سخر حديثه فى

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٧١ ، ص ٧٨ .

خدمة مطالب الشعب المصرى ، والدفاع عن حقوقه وقضاياه فكانت كلماته تغلى لها الدماء « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد وتربيتم على الاستبداد .. هبوا من غفلتكم .. وأصحوا من سكرتكم .. عيشوا كباقى الأمم أحراراً أو موتوا مأجورين شهداء ! » و .. « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال .. لماذا لا تشق قلب ظالميك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك ؟! » .

ولم يتوقف نشاط الأفغانى فى هذا المقهى حتى قبض عليه فى جنح الظلام بعد خروجه منه واقتادته الشرطة تحت الحراسة إلى السويس حيث ركب سفينة خرجت به من مصر منفيا إلى الهند فى عهد الخديو توفيق ومع ذلك فقد استمر تلاميذه من جلساء هذه القهوة يشعلون الحماس فى النفوس حتى نجحوا فى الهاب شرارة الثورة العرابية .

ولم يتوقف النشاط السياسى فى تلك الفترة على مقهى متاتيا بل كان هناك مقهى « يلدز » القريب من حديقة الأزبكية والذى كان يتوافد عليه طلائع المفكرين الأحرار من مصر والعالم العربى ومنهم عبد الرحمن الكواكبى الذى فر من الاضطهاد العثمانى فى بلاد الشام إلى مصر ، وعاش فى القاهرة معززا يكتب على صفحات جريدة المؤيد حلقات كتابه « طبائع الاستبداد » كما كان يتوافد على هذا المقهى محمد كرد على ، ومحد رشيد رضا .

وفى هذا المقهى التف حول الكواكبى مجموعة من رجالات حركة تركيا الفتاة الذين كانوا يتطلعون إلى اليوم الذى تخلص فيه أوطانهم من ربقة الذل والهوان ، وقد سرت أفكار الكواكبى فيهم وباتت كلماته عن الاستبداد بمثابة المشاعل التى تهديهم إلى طريق الخلاص ، مما دفع السلطان عبد الحميد إلى التخلص منه .

ومما يروى أنه بعد أن ارتشف فنجانا من القهوة فى هذا المقهى أحس بألم فى إحشائه ، وظل يقىء حتى فارق الحياة [١] .

وبالنسبة لقهوة بار اللواء [٢] التى كانت تقع أمام بناية جريدة الأهرام القديمة بشارع مظلوم فى قلب القاهرة فقد كانت منتدى لأهل الفكر والأدب والصحافة .

وعلى الرغم من أن صورة الزعيم الوطنى مصطفى كامل كانت تتصدر هذه القهوة الكبيرة ، وبالرغم من أن العديدين من رجالات الحزب الوطنى كانوا من روادها فقد ارتادها العديد من رجال السياسة والأحزاب الأخرى لا سيما حزب الأحرار الدستوريين ، كما كان يجلس عليها محررو الكشكول والسياسة الأسبوعية . يضاف إلى ذلك أن أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام كان يترك مكتبه فى الجريدة ليتخذ من احدى مناضد هذه القهوة مكتبا له حتى يجمع من حوله الأدباء والشعراء [٣] .

وإلى جانب ذلك ، فقد كان حافظ ابراهيم يلتقى فى هذا المقهى بالصحفيين ، أمثال داود بركات ، وتوفيق فرغلى حيث يتمتع بمجالسة الظريف محمد البابلى ، ويحظى بطعامه الدسم ، وشرابه المعتق الذى كان يأمر به فور حضوره ، ثم تدور الأحاديث الجدية والساخرة وطرائف النوادر بينهم [٤] .

---

(١) عباس العقاد : « الرحالة ك » ، القاهرة ، دار نهضة مصر ١٩٨٦ .

(٢) كان اسم جريدة اللواء التى أسسها مصطفى كامل فى عام ١٩٠٠ قد انتشر فى القاهرة وغيرها وأطلق على بعض المدارس والصيدليات والمحلات التجارية وغيرها .

(٣) عبد المنعم شميس : قهاوى الأدب والفن فى القاهرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٩١ ، ص ١٠٠ .

(٤) محمد كامل جمعة : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

والجدير بالذكر أن العائلة الأباظية كان لها ركن ركين فى هذه القهوة وكان من أشهرهم فؤاد باشا أباظة الذى كان رئيسا للجمعية الزراعية ، وفكرى أباظة المحامى والصحفى الشهير ، والوزير ابراهيم الدسوقى أباظة باشا .

وكان من رواد هذا المقهى أيضا الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور محمود عزمى الصحفى الشهير الذى تولى منصب عمادة كلية الحقوق وانشأ قسم الصحافة فى كلية الآداب .

وإلى جانب ذلك فلا يمكن أن نغفل فى معرض الحديث عن ثورة ١٩١٩ دور مقهى « جروبى » القديم حيث كان يجتمع فيه بعض رجالات الحركة الوطنية ، كما كانت تذاع منه أخبار الثورة وتوزع المنشورات ، وتدبر الخطط (١) مما ضايق الانجليز وأدى إلى قيام جنودهم باقتحامه فى العاشر من مايو ١٩١٩ والاعتداء على رواده ، كما أخذوا يفتشون الجالسين جزافا بحجة العثور على أسلحة أو منشورات ، ولما لم يوفقوا فى مبتغاهم أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أوامرها بحظر الاجتماعات فى المقاهى ، واعتبار أى شخص يشترك فى مثل هذه الاجتماعات مخلا بالنظام والقانون ، كما اعتبر أى اجتماع يعقد فى مقهى ، ويحضره أكثر من خمسة أشخاص وتلقى فيه خطب أو يحدث فيه ما يعكر صفو الأمن العام يؤدى إلى غلق هذا المقهى فى الساعة السادسة مساء فى المخالفة الأولى ، وإلى الغلق النهائى فى المخالفة الثانية (٢) .

---

(١) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جـ ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٧ – ٢٨ .

والجدير بالذكر أن القوات الانجليزية كانت تنتقم لخسائرها باقتحام المقاهي والاعتداء على كل من يأوي إليها من المصريين لدرجة أن نصح رجال البوليس أصحاب المقاهي المشهورة بالاغلاق

فهيمة ثابت : الزعيم الخالد وأم المصريين في منفي جبل طارق ، القاهرة ، مطبعة الشمس الحديثة ، د . ت ، ص ٩٩ .

ومع كل ذلك فقد ظلت أنشطة هذا المقهى فى التزايد ، كما تزايد عدد رواده لدرجة أن شاعر النيل حافظ ابراهيم قد طلب من هؤلاء الرواد أن يتخففوا عنه شيئا فشيئا وذلك فى قوله :

وما بال قومى لا ينزلـــون   بغير جروبى وبار اللواء [١]

ولم يتوقف الأمر على هذا المقهى ، بل كان لمقهى الحلمية دور مميز خلال الثورة ،حيث انطلقت منه خططها مماجعل الانجليز يضيقون به ذرعا ، فاعتدوا على رواده أكثر من مرة ، كما قاموا بتفتيشهم بحجة ضبط المنشورات الثورية [٢] .

يضاف إلى ذلك أن قهوة أحمد عبده التى ذكرها نجيب محوظ فى روايته « بين القصرين » كانت تعج بالثوريين الذين امتلأت قلوبهم بالغضب من الانجليز وتصرفاتهم خاصة بعد نفيهم لسعد زغلول إلى مالطة فبعد أن ضاق فهمى بمجلسه « نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الاعراب عما يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى . هناك يسمع أصداء الغضب المتقد فى قلبه ، ويستأنس بايماءته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش إلى الحرية الكاملة ، مال إلى اذن ياسين وهمس : إلى قهوة أحمد عبده ، فتنفس ياسين من الأعماق » [٣] .

أما بار الأنجلو ؛ فقد ضم كبار الساسة والكتاب على اختلاف انتماءاتهم الحزبية ، ونزعاتهم السياسية ، فكان يجلس فيه

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ، جـ ١ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٧ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الرسالة : العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩ .

(٣) بين القصرين : القاهرة ، مكتبة مصر ، ص ٣٣٨ .

محمد حسين هيكل الدستورى ، وحافظ عوض الوفدى ، وفكرى أباظة نصير الحزب الوطنى وغيرهم من السياسيين . كما كان الدكتور على ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى يقصدانه خلال بعض الامسيات حيث يمتد بهم السهر إلى ما بعد منتصف الليل (١) .

وبعد أن امتد النشاط الشيوعى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية كانت أغلب جلسات زعماء هذه الحركة المفضلة على رصيف قهوة ايزافتش .

لقد كان هذا المقهى يحتل موقعا متفردا وسط ميدان التحرير ويملكه مهاجر يوغسلافى من البوسنة فر من بلاده بعد انفراد تيتو بالسلطة واستطاع أن يجعل من هذا المقهى أشهر مقهى فى مصر قبيل الخمسينات من هذا القرن .

هذا عن المقاهى ودورها فى المجتمع المصرى ، أما عن المنتديات والصالونات الأدبية أو تلك الأندية الارستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى وأقطاب الفكر والتى كان للفكر والأدب مجالس خاصة بها ، فقد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وانتشرت فى مطلع القرن العشرين ومن أهمها : صالون نازلى فاضل وصالون مى زيادة وصالون العقاد وصالون طه حسين وغيره .

أما صالون نازلى فاضل فقد كان يعد من أبرز هذه الصالونات وأشدها تأثيرا فى الحركتين الأدبية والسياسية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر أمثال شريف باشا ، ورياض باشا ، ولطيف باشا سليم ، وعمر باشا لطفى ، وشاهين باشا وغيرهم ممن تألفت منهم هذه

---

(١) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٩٦ .

الجماعة التى عرفت باسم جمعية حلوان السرية ثم الحزب الوطنى بعد ذلك [١] .

كما قام هذا الصالون بجهد كبير فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده ، تلك الجماعة التى بدأت جذورها منذ حضور الأفغانى إلى مصر ، وازدهرت بفكر ونشاط الشيخ محمد عبده نفسه كما ضم هذا الصالون بين جنباته قاسم أمين وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى ، وأحمد فتحى زغلول ، وابراهيم المويلحى ، وأديب اسحق ، والشيخ على يوسف ، وحسين رشدى وغيرهم من قادة الفكر والرأى والسياسة الذين أدوا دورا متميزا فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، هذا إلى جانب أنه كان يضم بين جنباته كبار رجال الاحتلال البريطانى فى مصر أمثال « اللورد كرومر » والمستشرق « رونالدستورز » .

وفى هذا الصالون كانت تناقش مسائل الاصلاح الاجتماعى ويتدارس خلاله الفكر الراقى ، وفى هذا الصالون أيضا نبتت فكرة كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، ذلك الكتاب الذى تسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق ، وأثار العديد من المعارك الفكرية والاجتماعية والدينية فى ذلك العصر .

وعن صالون « مى زيادة » [٢] تلك المرأة القوية الحجة ، وصاحبة القلم التى عاشت على ضفاف النيل وتألق نجمها ونالت من الشهرة ما لم تنله أديبة مثلها فى عصرها خاصة وإنها اتقنت فن المقال والخطابة والنقد بالاضافة الى تفتح مواهبها الشعرية فقد تزاحم على الاقتراب منها أبناء جيلها من الأدباء والمثقفين ، وكبار الشخصيات خاصة وأنهم

---

(١) للتفاصيل أنظر : عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠ - ٨١ .

(٢) اسمها الحقيقى « مارى إلياس زيادة » ، وقد ولدت فى عام ١٨٨٦ من أب لبنانى وأم فلسطينية ، وقد رحل والدها إلى القاهرة فى عام ١٩٠٨ حيث أسس مجلة المحروسة .

من الجيل الذى لم يتعود على اختلاط امرأة فى بهجة الصبا ، وعذوبة الأنوثة بهم تناقشهم وتبادلهم أطراف الحديث بأسلوب لبق ، وجرأة مثيرة للدهشة تتحدث خلالها عن تحرير المرأة وضرورة اعطائها حقوقها السياسية وافساح المجال أمامها فى العلم والعمل [١] . عن هذا الصالون نذكر أنه كان بمثابة منارة للفكر المعاصر ، والفن والشعر والأدب قصده أناس عديدون منهم من يتحدث بالعربية بلهجة قاهرية ، ومنهم من يتحدثها بلهجة حلبية ، ومنهم من يتحدث الانجليزية ، ومنهم من لا يحلو له الحديث إلا بالفرنسية فقد قصد هذا الصالون أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، ولطفى السيد ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وولى الدين يكن ، وأنطون الجميل ، وأمين المعلوف ، ومصطفى صادق الرافعى ، وشبلى شميل ، وجرجى زيدان صاحب الهلال ، وسلامة موسى ، والدكتور على ابراهيم ، ومنصور فهمى ، وعباس العقاد ، وطه حسين وغيرهم حيث كانوا يتبادلون كل ثلاثاء فى شقتها الملاصقة لجريدة الأهرام [٢] أشهى الأحاديث الأدبية والفكرية ، والأبيات العذبة من الشعر الرصين كما كانت تفتح من خلاله أبواب التحاور فى موضوعات فكرية شتى ، وكانت « مى » كثيرا ما توجه هذا الحوار ، ومما يذكر أن طه حسين سمع فى هذا الصالون ولأول مرة نقد « مى » لرسالته فى الدكتوراه عن أبى العلاء [٣] .

ولم يسمع أن أحدا تخلف عن موعد الثلاثاء فى صالون « مى » بل كان الكل يحاول أن يسبق الآخر فى الوصول إلى الصالون حتى يحظى بدقائق منفردة مع « مى » .

---

(١) عباس العقاد : أنا ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ١٦ .
(٢) محمد عبد الله عنان : ثلثا قرن من الزمان ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ١١٦ .
(٣) مذكرات طه حسين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ص ٤٦ .

وظل هذا الجو الفكرى المرح ، وتلك المناقشات والمساجلات على حالها حتى قامت ثورة ١٩١٩ وشملت كافة طبقات الأمة ، فتغيرت مناقشات الصالون ، واختفى أغلب رواده حيث شغلهم العمل الثورى بعد أن نزلت الثورة إلى الشارع ، واجتاحت أفكارها مقاهى الموائد والمنتديات ، وبدأ الناس يلوكون سمعة ساسة عابدين ، والآستانة ، وقصر الدوبارة [١] .

وبعد انتهاء الثورة عادت أمور صالون « مى » إلى حالها وشاركت « مى » ضيوف صالونها فى كل حديث .

وقد ظل هذا الصالون مكانا محببا لدى العديد من المثقفين حتى تعرضت صاحبته لمرض وبيل توفيت على أثره فى أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وأصبح صالونها ذكرى بعد أن كان أثرا [٢] .

وعن صالون العقاد الذى كانت تعقد جلساته فى بيته يوم الجمعة أسبوعيا فى مصر الجديدة بشارع السلطان سليم رقم ١٣ فقد احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل . ولم يكن لجلساته موضوع محدد بل دارت فيها موضوعات شتى من التاريخ والأدب والفلسفة والفن والسياسة والفكاهة والنوادر فى كل فروع المعرفة الانسانية خاصة وأن العقاد لم يتخصص فى أى شىء بل كان عقله موسوعة [٣] .

وكان من رواد صالون العقاد زكى نجيب محمود وصلاح عبد الصبور وسنية قراعة وجاذبية صدقى وأنيس منصور والعديد من المفكرين العرب وغيرهم ومن مقعده أستطاع العقاد أن يتوغل بأفكاره

---

(١) فتحى خليل : سلامة موسى وعصر القلق ، القاهرة ، د. ت ، ص ٧٥ .
(٢) الرمادى : مرجع سابق ، ص ٨١ .
(٣) أنيس منصور : فى صالون العقاد كانت لنا أيام ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٣ .

فى قلوب مريديه ويخاطبهم بلغة المنطق والواقع بجرأة وإصرار ، يتكلم فى الأدب ، ويناقش فى الفلسفة والسياسة ، وينقد الكتب على أساس من دراساته العميقة والجميع يستمعون وكأنهم أدباء أثينا القديمة فى حضرة أفلاطون أو ارسطو [١] .

أما صالون طه حسين فقد كان يعقد مساء كل أحد فى بيته بالزمالك حيث كان يستقبل هو وزوجته سوزان كبار رجالات وسيدات الثقافة والمجتمع ، وضيوف مصر من المفكرين يتناقشون فيما يحلو لهم من أحاديث فكرية خاصة ما كان يدور فى كتبه ، وفى القضايا التى كان يثيرها من أجل حرية الرأى ، والجديد فى الفكر المعاصر [٢] .

وكان من زوار هذا الصالون د. حسين فوزى صاحب السندباد المصرى ، والدكتور أحمد ابراهيم رئيس ديوان المحاسبة ، والدكتورة سهير القلماوى ، ويوسف السباعى وغيرهم .

ومما سبق يتضح أن المقاهى والصالونات الأدبية كانت حياة زاخرة بالأفكار ، والأحداث ، والشخصيات الذين صنعوا الحياة الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر وكانوا بمثابة عقول الأمة وصناع وجدانها . وان هذا الوهج قد اختفى بكل مباهجه فى هذه الأيام ، ولم يعد فى القاهرة من مقاهى الأدب والفن سوى القليل ، كما لم نعد نسمع عن معركة فكرية أو قضية سياسية داخل مقهى أو صالون يمكن أن تساعد على قلب رتابة حياتنا خاصة وأن عصر التليفزيون ، وثقافة الساندوتش السريعة قد أغلقت هذا الباب بالضبة والمفتاح إلى حد كبير .

* * * * *

---

(١) محمد نصر : أدباء فى صور صحفية ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ ، ١٧٢ .

(٢) كمال الملاخ : طه حسين قاهر الظلام ، القاهرة ، دار الكتاب الجديد ١٩٧٢ ، ص ٣٧٨ .

٤ - علي مبارك وروضة المدارس[١]

عندما نتحدث عن على مبارك والصحافة نجد أن هناك سؤالا يطرح نفسه وهو لماذا فكر على مبارك فى انشاء صحيفة روضة المدارس فى عصر اسماعيل ؟ ولماذا كانت هذه الصحيفة تعليمية بالذات ؟

فى عصر اسماعيل ظهرت بدايات نهضة صحفية حيث سمح فيها للصحف غير الرسمية لأول مرة فى القاهرة والاسكندرية بالظهور فوجدنا مجلات طبية وسياسية وأدبية فظهرت مجلة اليعسوب التى أنشأها الدكتور محمد على البقلى وابراهيم الدسوقى عام ١٨٦٥ وصحيفة وادى النيل التى أنشأها عبد الله أبو السعود عام ١٨٦٦ ونزهة الأفكار التى أنشأها ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال عام ١٨٦٩ أى قبل ظهور روضة المدارس بعام واحد كما ظهرت فى الاسكندرية صحف الكوكب الشرقى عام ١٨٧٣ لصاحبها سليم حموى ، والأهرام عام ١٨٧٥ لصاحبها سليم وبشارة تقلا ودخل الصحافى ميخائيل عبد السيد الميدان فأصدر جريدة الوطن عام ١٨٧٧ كما أصدر فى نفس العام سليم النقاش جريدة مصر وكانت هاتان الجريدتان معرضا لآراء وأفكار جمال الدين الأفغانى وأصدر يعقوب صنوع جريدة أبو نضارة زرقاء عام ١٨٧٧ ، وفى عام ١٨٧٨ أصدر سليم عتحورى « مرآة الشرق » وسليم النقاش جريدتى التجارة والمحروسة [٢] ، ورغم ظهور هذه الصحف فإن الميدان الصحافى كان فى حاجة إلى صحيفة متخصصة فى شئون التعليم لكى تستكمل لطلاب العلم ثقافتهم ، ومن هنا رأى على

---

(١) ألقى هذا البحث فى ندوة على باشا مبارك التى يأقامتها الجمعية التاريخية فى ديسمبر ١٩٧٩ .

(٢) للتفاصيل انظر : قسطاكى الياس عطارة : تاريخ الصحف المصرية ، الاسكندرية ، مطبعة التقدم ١٩٢٨ .

مبارك الذى كان جل مرغوبه تعميم العلوم وتتميم المعارف وانتشار الفنون والذى كان يعتبر التعليم وسيلة من وسائل التوجيه وتكوين الرأى العام المستنير ضرورة انشاء مجلة تربوية تعليمية تتبناها وزارة المعارف فأسس مجلة عنونت باسم « روضة المدارس » أسند رئاستها إلى رفاعة الطهطاوى ناظر الترجمة بديوان المدارس كما أسند تحريرها إلى على بك فهمى رفاعة وكان يعمل مدرسا للانشاء بمدرسة الادارة والألسن . وقد قدم على مبارك رفاعة الطهطاوى إلى قراء الجريدة بقوله « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار أليه بين أرباب المعارف بالبنان والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ناسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين وينشر علمها فيتلقاها محب المعارف باليمين [١] .

ومع أن رفاعة تولى ادارة هذه المجلة فإنه لم يكن مطلق التصرف فى صفحاتها [٢] . ويتضح ذلك من قوله « ومما يشهر من فضل هذه الصحيفة ويعلى قدرها ويزيد من أهميتها ويرفع ذكرها أن سعادة مدير المدارس جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يتدرج فيها شىء إلا بإشارته » وجعل نفسه أول منتظم فى سلك عدادها وأسبق مبادر لامدادها ومنحها الرئاسة التشريفية والادارة العملية وأحال على الفقير مباشرة تحريرها ومناظرة ما يلزم لتحبيرها [٣] .

---

(١) روضة المدارس : العدد الثانى من السنة الأولى بتاريخ السبت غاية محرم ١٢٨٧ ، ص ٢ ، تحت عنوان « صورة ما ورد من سعادة الباشا مدير المدارس » .

(٢) يذكر الدكتور ابراهيم عبده أنه « كان للطهطاوى فى روضة المدارس مطلق التصرف » .

انظر : أعلام الصحافة العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الآداب بالجيزة ١٩٤٨ ، ص ٣٤ .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ ، ص ٢ .

أما عن أهداف هذه المجلة فتتضح من قول رفاعة الطهطاوى « أنه بمقتضى الارادة الخديوية المجابة بالمهمة العلية المباركية (ظهرت) صحيفة تعنون باسم روضة المدارس على هيئة مجموعة يتقيد فى جريدتها أى مادة علمية من المواد النفائس بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد وأسهل مأخذا لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد بقلم سهل العبارة واضح الاشارة [١] .

كما وضح المقال الافتتاحى للعدد الأول من المجلة بعدها عن السياسة فيقول محرره « فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية والوقتية . والأفعال الرئيسية والادارية » [٢] ثم ينتقل محرر المقال الافتتاحى إلى أسباب انشاء هذه المجلة فيقول « فهذه الصحيفة تتكفل إن شاء الله تعالى بانتشار أنواع العرفان .. لينتفع بها كل متولع بالاستضاءة بمصابيح المعارف المستحسنة من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وعلى الخصوص أبناء المدارس [٣] وقد صدر العدد الأول من روضة المدارس يوم السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ الموافق ١٧ ابريل ١٨٧٠ كمجلة أدبية علمية تصدر مرتين فى الشهر [٤] وكانت تطبع فى مطبعة « وادى النيل » فى الفترة الأولى من حياتها ثم طبعت بمطبعة

---

(١) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ ، ص ٤ .
(٢) نفسه ص ٤ .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه

المدارس الملكية بدرب الجماميز [١] ، وكان يطبع من كل عدد منها ٣٥٠ نسخة ثم زيدت إلى ٧٠٠ نسخة [٢] .

ولما كانت المهمة الأساسية لهذه المجلة نشر العلم والعرفان فقد جعل شعارها

تعلم العلم واقرأ	تحز فخار النبوة
فالله قال ليحيى	خذ الكتاب بقوة

وقد تولت نظارة المعارف الانفاق على هذه المجلة واصدارها بصفة منتظمة بغرض نشر المعارف الحديثة واحياء الآداب والنهوض باللغة العربية ، فكانت خير معلم للناشئة فى ذلك العهد . خصوصا وأنها كانت توزع مجانا على التلاميذ المتفوقين فى دراساتهم [٣] على سبيل التشجيع والترويج من ناحية والتعويض والمكافأة من ناحية أخرى [٤] حيث كان ديوان المدارس يمنح كلا من الطلاب الثلاثة الأول من كل فرقة بالمدارس الأعداد التى تصدر من الروضة [٥] مما ساعد على نشر العلوم

---

(١) لما رأى على مبارك ضرورة انشاء مطبعة لطبع الكتب المدرسية لأجل « تسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين وصون ما تعلمون عن الذهاب جعل بالمدارس مطبعة ، انظر : على مبارك » ، الخطط التوفيقية ، جـ ٩ ، ص ٤٥ .

ولما كانت روضة المدارس تابعة لنظارة المعارف فقد طبعت بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز بدلا من مطبعة جرنال وادى النيل الذى كانت تطبع فيه من قبل .

روضة المدارس : العدد الرابع من السنة الثانية بتاريخ الجمعة ١٥غاية صفر ١٢٨٨هـ .

(٢) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ .

(٣) د. ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٥١ القاهرة ، مكتبة الآداب بالجماميز ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٢ .

(٤) محمد عبد الغنى حسن ، د. عبد العزيز الدسوقى : روضة المدارس ـ نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعملية ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٨٨ .

(٥) د. أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق الذكر ، جـ ٢ ، ص ١٥٣ .

والمعارف وتعويد الطلبة حب المطالعة والبحث ، كما أنها فتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم القيمة فكان ذلك مشجعا لهم مستحثا لهممهم على البحث [١] . ولما خشى ديوان المدارس أن تشغل الروضة بعض الطلبة عن دروسهم . أصدر أمرا بأن « التلامذة لا يشتغلون بمواد الجرنال فى وقت الدروس ولا فى كتابته ما لم يكن فى أوقات الفسحة أو خارجا عن المدرسة » [٢] . كما كان يكتب فيها « من ينتخب من ذوى المعارف ويستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية لأجل توسيع الأفكار ، وتحريرها يكون بعبارة سهلة التناول وجيزة مفيدة » [٣] مما جعلها ميدانا تتلاقى فيه أقلام العلماء والكتاب والأدباء أمثال على مبارك ، وعبد الله باشا فكرى [٤] ، ومحمد قدرى بك [٥] ، واسماعيل باشا الفلكى [٦] ، ورفاعة الطهطاوى ، والمسيو بروكش [٧] ، والشيخ عبد الله أبو السعود ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، والشيخ حسين المرصفى [٨] ، والشيخ عثمان مُدَوَّخ [٩] .

---

(١) Dor (V. Edouard) : L'Instruction pubiqe en Egypte, paris, 1872 p.253 . ,

(٢) دار الوثائق القومية ، دفاتر مدارس عربى ، دفتر ٤٢٨ ، ص ١٠٣ ، رقم ١٠٧ من ديوان المدارس إلى إدارة المدارس الملكية بتاريخ ١٢ صفر ١٢٨٧ هـ .

(٣) دار الوثائق القومية : دفاتر مدارس عربى ، دفتر رقم ٤٢٧ صادر ٦٦ رقم ٣٠١ فى ١٩ ذى الحجة ١٢٨٦ هـ .

(٤) احيل عليه العلوم العربية والفنون الأدبية .

(٥) اختص بالكتابة فى الجغرافيا والعقائد والأخلاق .

(٦) عهد إليه بالكتابة عن علم الفلك .

(٧) ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم .

(٨) طلب منه امداد المجلة بالنوادر الغربية والمضحكات والألغاز والنكات .

(٩) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ ، ص ٧ .

ولم يفت على مبارك أن ينشر فى العدد الأول من المجلة مقالا فأمدها بمقال عن انشاء دار الكتب الخديوية ذكر فيه « خلاصة وجيزة تتعلق بما كانت عليه مصر من اهتمام أهلها بالعلوم والفنون فى الأحقاب الخالية ومقابلة ذلك بحالتها التى هى عليها فى تلك الحقبة الحالية » (١) وبعد أن تحدث عن التأخر الذى طرأ على البلاد أشار إلى اهتمام الخديو اسماعيل بالتعليم وذكر أن الارادة الخديوية اقتضت « انشاء دار كتب تكون مركزا يؤدى إليه محبو الاطلاع ومن فيهم رغبة لتحصيل شوارد العلوم » (٢) ثم تحدث عن الخطوات التى تم بها انشاء دار الكتب والظروف التى نشأت فيها فقال « ولما كانت نفائس الكتب العربية متفرقة فى خزائن شتى من بقاع المحروسة .. ولأجل محافظتها كل المحافظة وملاحظاتها بكمال الملاحظة وابقاء ذكر المؤلفين وإحياء سير السالفين صار جلب جميع الكتب الموجودة فى خزائن الجوامع السلطانية وغيرها من الخزائن الفائقة وجعل لها فى دار الكتب محل مخصوص ورتبت فيه بالتراتيب اللائقة (٣) .

ولما كان من أهداف مجلة روضة المدارس نشر العلم والثقافة فقد اهتمت منذ صدورها بالاعلان عن الكتب والترويج لها بالدعاية وخصوصا الكتب التى تصدر عن هيئات علمية أو أدبية ـ كما قامت بالتعريف عن عدة كتب أولها كتاب « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار » (٤) وهو من تأليف على مبارك .

---

(١) نفسه ، ص ٩ .

(٢) نفسه .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى فى ١٥ محرم ١٢٨٧ ، ص ٩-١٠ .

(٤) هذا الكتاب طبع بمطبعة وادى النيل بالقاهرة عام ١٢٨٧ هـ ويقع فى ٨١ صفحة وهو غير كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » الذى ألفه الميرالاى اسماعيل سرهنك ناظر المدارس الحربية عام ١٣١٢ هـ أى بعد حوالى ٢٥ عاما من صدور كتاب على مبارك وهو يقع فى جزءين يتكون الجزء الأول منهما من ٧٧٢ ص والجزء الثانى من ٥٨٤ صفحة وطبع فى المطبعة الأميرية ببولاق .

ولم تقتصر المجلة على نشر مقالات عن هذه الكتب بل لجأت إلى طريقة أشمل وهى اصدار هذه الكتب على هيئة ملاحق وفى صورة (ملازم) تلحق بآخر كل عدد [١] فنشرت فى عددها الأول من السنة الأولى الملزمة الأولى [٢] من كتاب على مبارك « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار » وقد قدم على مبارك هذا الكتاب بقوله أنه بعد اطلاعى على مؤلف جليل فى البحار رأيت « فوائد لا تدخل لكثرتها تحت انحصار فأردت نشرها بين العام والخاص حتى لا يكون عند الانتفاع بها مناص وشمرت عن ساعد الجد بلا توان فى تلخيص رسالة سهلة التناول على كل انسان نوهت فيها بما أودعه المولى سبحانه وتعالى فى البحار من العجائب ونبهت على ما فى حوامل بطونها من الأسرار والغرائب [٣] .

وقد نشرت روضة المدارس هذا الكتاب على هيئة ملازم ابتداء من العدد الأول لسنتها الأولى كما ذكرنا واستمرت فى نشره على فترات غير منتظمة حتى العدد الرابع والعشرين من السنة الثانية [4] وفيه عرضت خاتمة الكتاب وقد قرظ محرر الجريدة هذا الكتاب بقوله أنه

---

(١) بدأ ظهور هذه الملاحق فى العدد الأول من السنة الأولى من المجلة وليس كما يذكر مؤلفا كتاب « روضة المدارس نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية » أن هذه الملاحق ظهرت ابتداء من العدد الثالث وللتحقق من ذلك انظر : روضة المدارس ، العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ ثم أنظر : محمد عبد الغنى حسن ، دكتور عبد العزيز الدسوقى ، روضة المدارس نشأتها واتجاهاتها ، ص ٧٣ .

(٢) كانت الملزمة تتكون من ٤ صفحات .

(٣) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الأولى بتاريخ ١٥ محرم ١٢٨٧ ملحق (١) ، ص ٣ .

(٤) تكرر نشر الملزمة الثانية عشر من كتاب حقائق الأخبار من ص ٤٥ إلى ص ٤٨ مرتين . الأولى فى العدد الثالث من السنة الثانية بتاريخ ١٥ صفر ١٢٨٨ والأخرى فى العدد السادس من نفس السنة بتاريخ الأحد غاية ربيع الأول ١٢٨٨ هـ .

« جاء بحمد الله وعونه مفيدا للطلاب .. لا سيما وإنه أناط سعادة المشار إليه (يقصد على مبارك) بتهذيب عباراته وتقريب اشاراته وتقرير مبانيه وتنقيح معانيه حضرة السيد صالح مجدى بك مأمور إدارة المدارس الملكية » [١] .

وفى هذه السنة أيضاً وابتداء من العدد السادس عشر [٢] ، نشرت الملازم الثلاثة الأولى من كتاب « تنوير الافهام فى تغذى الأجسام » [٣] وهو من تأليف على مبارك وعنه قال « يقول الراجى فيما يعود بالنفع نجاح الأعمال على مبارك باشا مدير المدارس والأشغال لما كان من الأمور التى ينبغى البحث فيها عن الحقيقة والوقوف على كنهها بأسهل طريقة معرفة كيفية تغذى جسم الانسان بما يتناوله من الأطعمة فى جميع الأحيان .. وقد عثرت فى هذا الفن على كتاب جميل .. ترجمته مع الاختصار من اللغة الفرنساوية إلى اللغة المنيفة العربية وجعلته سهل التناول لكل راغب فيه وسائل » [٤] وقد استمرت المجلة فى نشر هذا الكتاب فى أعداد متفرقة فى ثمانى عشرة ملزمة مكونة من ٧٢ صفحة نشر آخرها فى العدد السابع من السنة الثالثة بتاريخ ١٥ ربيع ثانى ١٢٨٩ وقد قرظ على فهمى رافع بن رفاعة الطهطاوى هذا الكتاب بقوله « لما كان العمل المبرور السعى فى تنوير افهام الجمهور كان سعادة افندم على مبارك باشا مدير المدارس الملكية الذى له من اسمه العلى ولقبه

(١) روضة المدارس: العدد ٢٤ ختام السنة الثانية بتاريخ السبت غاية الحجة ١٢٨٨ هـ ، الملحق ص ٨١ .

(٢) تاريخه غاية شعبان ١٢٨٨ هـ .

(٣) طبع هذا الكتاب بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز عام ١٢٨٩ هـ .

(٤) روضة المدارس ، العدد السادس عشر من السنة الثانية بتاريخ الأحد غاية شعبان ١٢٨٨ هـ ، ملحق الصحيفة ، ص ٢ .

المبارك أوفى نصيب وأوفر مزية .. حيث غرس فى روضة المدارس تراجم عدة .. كان منها هذا الكتاب الجليل والسفر الذى عز عن التنظير والتمثيل المسمى « تنوير الافهام فى تغذى الأجسام وقد أحسن بعد ترجمته فى تهذيب معانيه وترتيب مبانيه حضرة ذى المعارف السنية السيد صالح مجدى بك مأمور ادارة المدارس الملكية » .

ومما كتبه على فهمى رفاعة يتضح أن هذا الكتاب من مترجمات على مبارك وأن الذى نقحه ورتبه السيد صالح مجدى مأمور المدارس الملكية » .

أما الكتاب الثالث الذى نشرته روضة المدارس لعلى مبارك على هيئة ملازم فهو « خواص الاعداد » [1] ، وقد قال على مبارك عن أسباب تأليفه لهذا الكتاب « وبعد فقد اطلعت على بعض كتب فرنساوية مشتملة على نفائس مسائل حسابية وقد ذكر فيها بعض خواص للاعداد وما يتعلق بعلم الأوفاق من المواد فاستحسنت أن أفصح عنها بلسان التعريب لما أنها اشتملت على كل معنى غريب .. هذا وأن المسائل الواردة فى هذه الرسالة بعضها محلول بطرق الاثباتات والبراهين ، وبعضها مذكور بغير حل وتبيين » [2] وقد نشرت الملازم الثلاثة الأولى من هذا الكتاب ابتداء من العدد السابع عشر من روضة المدارس فى سنتها الثانية واستمرت فى نشره على أعداد متفرقة حتى العدد الثالث والعشرين من السنة الثالثة فى ست وعشرين ملزمة مكونة من ١٠٤ صفحة وقد قرظ على فهمى رفاعة هذا الكتاب بقوله « يا له من كتاب

(١) طبع هذا الكتاب بمطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز عام ١٢٨٩ هـ .

(٢) روضة المدارس : العدد السابع عشر من السنة الثانية بتاريخ الاثنين ١٥ رمضان ١٢٨٨ هـ .

تخير من خواص الأعداد مسائل صحيحة الجمع وسير فى ضمن روضة المدارس جداول أوفاق عذبة يروى منها الذوق ويسر بها السمع وكم فيه من أحجية وقفت عندها الحجا وفى حل مشكلة أنار معه الدجى » [١] .

وفى السنة السابعة من حياة المجلة نشرت فى العدد العشرين الملزمتان الأولى والثانية [٢] من كتاب « تفكرة المهندسين » لعلى مبارك حيث قرظه على فهمى رفاعة بقوله أن هذا الكتاب من « تأليف رب المعارف الساطعة والتأليف النافعة الأمير الشهير سعادة على مبارك باشا مستشار الأشغال العمومية » [٣] وقد استمرت المجلة تنشر ملازم هذا الكتاب حتى عددها الأول من السنة الثامنة [٤] ويذكر لنا على مبارك نبأ تأليف هذا الكتاب بقوله أنه كان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وكتابة التعليقات فى ورقات جمعها بعد ذلك فصارت كتابا مفيدا فى فنون شتى مما يحتاج إليه المهندسون [٥] كما يتضح أن على مبارك قد عرض هذا الكتاب على بعض معلمى الرياضة قبل نشره إذ يقول « بقى عندى أن أطلع عليه بعض معلمى الرياضة فى المدارس الملكية وغيرهم » [٦] .

وبعد هذا العرض الوجيز يتضح لنا أن انشاء مجلة روضة المدارس كان من ثمار تفكير على مبارك حين كان ناظرا للمعارف ، كما يتضح أن

---

(١) روضة المدارس : العدد ٢٣ من السنة الثالثة بتاريخ ١٥ الحجة ١٢٨٩ هـ .
(٢) أصبح عدد صفحات الملازم فى هذا الكتاب ثمانية بدلا من أربعة .
(٣) روضة المدارس : العدد العشرين من السنة السابعة بتاريخ شوال ١٢٩٢ هـ .
(٤) روضة المدارس : العدد الأول من السنة الثامنة بتاريخ الاثنين ١٥ محرم ١٢٩٤ هـ .
(٥) روضة المدارس : العدد العشرين من السنة السابعة بتاريخ غاية شوال ١٢٩٢ هـ .
(٦) نفسه .

على مبارك قد أمد هذه الصحيفة بمقال تقريرى عن انشاء دار الكتب كما أمدها بأربع من كتبه فنشرتها على هيئة ملازم وهذه الكتب هى :

١ - حقائق الأخبار فى أوصاف البحار .

٢ - تنوير الافهام فى تغذى الأجسام .

٣ - خواص الأعداد .

٤ - تفكرة المهندسين .

والجدير بالذكر أن هذه الكتب ومعظمها مترجم عن الفرنسية نقحت بعد ترجمتها للعربية بمعرفة صالح مجدى مأمور ادارة المدارس الملكية .

لقد توقفت روضة المدارس بعد أن صدر العدد السادس عشر من سنتها الثامنة دون أن تذكر السبب الذى دفعها إلى هذا التوقف بل كان هذا العدد مليئا بالخطب الافتتاحية والختامية التى كانت تلقى فى المدارس والمكاتب الأهلية عام ١٢٩٤ هـ [١] وبعد أن استمرت قرابة ثمانية أعوام إلا أربعة أشهر تصدر أعدادها فى مواعيدها بانتظام مرة كل أسبوعين ابتداء من ١٥ محرم ١٢٨٧ وحتى غاية شعبان ١٢٩٤ هـ .

* * * * *

(١) انظر روضة المدارس : العدد السادس عشر من السنة الثامنة بتاريخ غاية شعبان ١٢٩٤ هـ .

٥ - مجتمع القاهرة ١٩١٧ - ١٩٤٤
كما صورته ثلاثية نجيب محفوظ

تعدد الجوانب فى كتابات نجيب محفوظ دفعت بالعديد من المتخصصين خصوصا الأدباء والفنانين والصحفيين إلى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها ، وإبداء الرأى ووجهات النظر حولها .

أما عن المؤرخين وباحثى التاريخ فإنهم لم يطرقوا باب هذه الكتابات بالدراسة ، وإن كان معظمهم قد قرأها ، وربما كان ذلك لتشككهم فى أن المادة الروائية تصلح أساسا لكتابة التاريخ .

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحربين ، وتسجيله لواقع البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ، ثم محاولة الاجابة على التساؤلات الاتية :

هل يمكن أن يصلح الأدب الروائى مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ ؟ وما هى الخيوط التى يمكن أن يتلمسها المؤرخ من وصف أديب للمجتمع الذى يكتب عنه ؟ وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة رواياته على الدراسات التاريخية الجادة ؟ وهل كان نجيب محفوظ أديبا لطبقة بعينها ؟ أم كان أديبا لكل طبقات المجتمع ؟ وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيته حلولاً للمشكلات التى طرحها أم تعرض لها دون أن يقدم لها حلولا ؟

وقبل أن نتعرض لاطار الثلاثية الاجتماعى والسياسى ينبغى لنا أن نتعرف على كاتبها .

ولد نجيب محفوظ فى حى الحسين أكثر أحياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢ ، من أسرة متوسطة لا تتمتع بشىء من الثراء ، ولم يكن لها سوى الدخل المحدود الذى يعود على ربها من عمله ، وعايش هذه

البيئة ، وعاصر مشاكلها ، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحل حياته الأولى ، ودرس الفلسفة فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة ، فأكثر من الاطلاع على انتاج رواد الأدب فى مصر ، وتأثر بشكل خاص بكتابات سلامة موسى ، ثم واصل قراءاته للآداب الأجنبية ، واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة [١] . مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته الفنية التى أعانته على كتابة الرواية بالمستوى الرفيع الذى بلغته ، وشهد له به معظم نقاد الأدب العربى الحديث وغيرهم . يضاف إلى ذلك أنه ظل مغرما بقراءة التاريخ المصرى ، والاستعانة به فى كتابة رواياته ، وقد يرجع ذلك إلى تأثره بالتيار القومى الذى اتجه المثقفون المصريون إلى احيائه كرد فعل لتغلغل الثقافة الأوربية والاحتلال البريطانى ، وربما يرجع أيضا إلى أنه عاصر فى فترة شبابه الاكتشافات الهامة للعديد من الآثار الفرعونية .

والثلاثية - بأجزائها الثلاثة - انتهى نجيب محفوظ من كتابتها قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شهور ، وكانت حين دفع بها إلى المطبعة فى المرة الأولى عبارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد ، غير أن اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها إلى ثلاثة أجزاء .

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكرية [٢] .

---

(١) محمد صالح الشنطى : الرواية العربية فى مصر من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٦ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٢٣ ، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للاستاذ أحمد عباس صالح ، تحت عنوان « فى الرواية العربية » .

(٢) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ . رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ٦ .

وعن الفترة الزمنية التى شملتها أجزاء الثلاثية يتضح أنها شملت ثلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها من أكتوبر ١٩١٧ إلى ابريل ١٩١٩ ، ورواية قصر الشوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ إلى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ . أما عن رواية السكرية فقد جرت أحداثها ما بين يناير ١٩٣٥ إلى صيف ١٩٤٤ .

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت تلك الأحداث إبان طفولته ، وعلى أقوال شهود عيان هذه الفترات ، هذا بالاضافة إلى بعض الصحف [١] .

والثلاثية فى مجموعها تنتمى إلى أدب القضايا الفكرية الذى يبلور قضية أو أزمة معينة ، يقوم بتجسيدها أكثر مما يستهدف تحليلها [٢] . وتستند عبر السياق على أدلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنايا الرواية وتؤدى وظيفتها ، وتقحم نفسها على اهتمام القارىء ، دون أن تمنعه من مواصلة قراءته الأدبية .

ومحور الثلاثية يدور حول أسرة مصرية من طبقة محددة تتكون من ستة أفراد عاشت فى أحد أحياء القاهرة القديمة المتاخمة لمسجد سيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين ، وقصر الشوق ، وحارة السكرية ، عبر ثلاثة أجيال من الآباء والأبناء والأحفاد ، لكل منهم فكره الخاص ورؤيته للمستقبل .

وللثلاثية وجهان : أحدهما يحمل طابعا اجتماعيا تمثل فى تصوير الواقع الاجتماعى للقاهرة فى فترة ما بين الحربين من خلال شريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة فى أسرة أحد التجار التى يتوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمرد الخفى عليها والتطلع إلى الحرية فى مختلف أشكالها من ناحية أخرى .

---

(١) نفسه .
(٢) غالى شكرى : المنتمى ، دراسة فى أدب نجيب محفوظ ، القاهرة، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ٦٤ .

أما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للأحداث السياسية الكبرى فى مصر من جهة ، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ وأهدافها من جهة أخرى .

وليس معنى ذلك أن وجهى الثلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان ، بل كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس .

وعن القضايا الاجتماعية التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته فقد هدف منها إلى رصد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه لحياة أسرة التاجر أحمد عبد الجواد اليومية ، وتفاعلها مع مجتمعها الصغير من ناحية ، ومع الأحداث السياسية التى مرت بها مصر بين الحربين من ناحية أخرى . كما صور القضايا التى كانت تشغل اهتمام الطبقة الوسطى ، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها .

فقد تتبع نجيب محفوظ هذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى الملىء بالمتناقضات ، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشاربها ، ومحاولات الكبار والصغار التمرد عليها ، ولكن بطريق خفى ، فقدم القاهرة المعزية ، وكأنها عالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحاول فرض نفسها على ساكنيها ، وتحدد سلوكهم ، كما صور لنا نماذج من التفكير رسمت صورا للقديم والجديد ، والتقليد والتجديد ، والجمود والتحرر . والتخلف والتقدم ، وكان الصراع بين هذه الأطراف هو أحد سمات الحياة والحركة فى الثلاثية .

وعن شخصيات الثلاثية فقد ربطها الكاتب بمحيطها الاجتماعى ، وبمنظور صور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى أعماق النفس البشرية من خير وشر ، ومن أحاسيس ومشاعر متضاربة ، كما صور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد

من جهة ، وعوامل المحافظة على القديم من جهة أخرى ، فرب الأسرة « سى السيد » كان مثالا للرجل الشرقى الذى يدير بيته بطريقة استبدادية ، بينما فى خارج منزله يحيا حياة مختلفة ، سواء فى دكانه من خلال عالم التجارة ، أو فى مجالس الأنس والسهر والخليلات والعوالم التى يحياها ليلا ، ورغم ذلك فهو يحرص على أن يمسك بزمام أسرته يحركها كما يشاء ، ويلقى الاحترام الكامل من زوجته وأولاده ، ويحاول أن يظهر أمامهم بمظهر الجد والصرامة والاستقامة ، بالرغم من أنه كان صورة للعبث والمجون خارج بيته ، لدرجة أن أبناءه لم يتعرفوا على وجهه الباسم إلا بعد أن دخل أحدهم عليه دكانه فجأة فرآه يمازح أحد أصدقائه ، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكشف أحد الأبناء النقاب عن الجانب الخفى من حياة أبيه حين رآه صدفة من ثقب الباب فى بيت زبيدة العالمة ، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء ، فتتغير نظرته إلى والده .

وأمينة الزوجة كانت مثالا للمرأة المحجبة المطيعة لزوجها ، والتى تحبه ، وتعتبر نفسها خادمة له ، وتخشى غضبه ، وتحاول تجنب أى مخالفة لرأيه ، ومع ذلك يتغلب عليها الجانب الدينى ، وتدفعها نوازع الايمان والشوق لرؤية مسجد الحسين إلى القيام بمغامرة خطيرة وخيمة العواقب بزيارتها الحذرة له ، دون أوامر من زوجها مما كلفها الكثير [١] ، حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت إلى بيت أمها بالخرنفش .

وهكذا صور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس أمينة وبين تمسكها بالتقاليد التى تقضى بطاعة أوامر زوجها ، وتغلب النزعة الدينية على التمسك بالتقاليد .

وعن بنات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، القاهرة ، مكتبة مصر ، د.ت ، ص ١٢٨-١٢٩ .

المحافظات على التقاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الأبنة من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها ، ولا من بيت زوجها إلا إلى القبر ، ومع ذلك كن يحاولن اختلاس النظر من حين إلى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشبان .

كما تعرض نجيب محفوظ من خلال هذه الأسرة إلى أحد التقاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية ، وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى ، فصور البنت الكبرى فى غير جمال أختها الصغرى الشقراء ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تقدم الخطاب لخطبة الصغرى ، بينما لم يتقدم للكبرى أحد منهم ، مما أدى إلى تعطيل أمر زواج الصغرى وخيبة أملها رغم حبها لضابط البوليس التى كانت تراه ويراها من المشربية ، كما أدى أيضاً إلى اصابة البنت الكبرى باضطراب فى سلوكها وتعاملها مع أفراد أسرتها ، مما أثر فى مجرى حياتها لعدم تقدم أحد لخطبتها ولاحساسها بابتعاد راغبى الزواج عنها .

أما عن أبناء أسرة عبد الجواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شأن أبناء معظم الأسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب ، رغم أن الأرضية الاجتماعية التى أنبتتهم واحدة ، فكان منهم الكسول الخامل المحب للهو ، الذى يقنع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية يذهب إليه مكرها ، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه أثناء وقوفه عند بائع البسبوسة ، ويشارك فى كل شىء مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل ، ومنهم الجاد الذى درس الحقوق بشغف ، وتمنى أن يبلغ من التعليم أحسنه ، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة له تختفى أمامها كل مغريات الحياة ، ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران ، فيقابلها فوق السطوح ، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما ، ومنهم الصبى الصغير الذى يذهب إلى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق أذنه من أمه فى المنزل ، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر

الأخوان المسلمين ، ويجد فيه الطريق للاصلاح ، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل إلى الحياة الأفضل .

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على أبناء الأسرة ، فيصور ياسين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة ، وإن كانت بصورة مختلفة ، فازدواجية الأب كانت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت ، وحياة اللهو خارجه ، أما ازدواجية ياسين فبرزت فى حرصه على مظهره وأناقته ، رغم اهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا [١] . بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره ، وقد ورث عن أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات ، وسرعة الملل من الزواج ، فبعد أن زوجه والده من زينب أبنة صديقه محمد رفعت ، سئمها قبلما ينتهى شهر العسل ، ورجع إلى خليلاته مثل نور الجارية وغيرها ، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا ، ورغم فداحة هذه الخيبة التى منى بها ياسين فى حياته الزوجية ، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة ، فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزوجة المستقر والملاذ والرعاية ، ومن هنا فإنه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا .

ومن خلال هذه الأسرة أيضاً يتطرق نجيب محفوظ إلى عادة الحسد السائدة بين المصريين ، وبخاصة إذا كان الحاسد ليس له ولد ، والمحسود كثير الأولاد ، فصور اصطحاب أحمد عبد الجواد لأبنائه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة لالتماس البركة ، وخشية الأم من أن تصيب عين الحسود أحدا من أبنائها عند زيارتهم لمسجد الحسين بصحبة والدهم ، وحيرتها بين استحسان زيارة أبنائها للمسجد من ناحية ، وخشيتها من أن يحسدهم حاسد ، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحية أخرى .

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٤٠ .

وعن الحب بين الرجل والمرأة ، وعدم تأثيره القوى فى هز الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع أشارت السكرية إلى وقوع أحد أفراد أسرة سى السيد فى حب فتاة ارستقراطية تفوقه مالا وجاها ، ولكنها رفضت الزواج منه لأن مرتبه يقل عن خمسين جنيها ، رغم علاقة الحب الملتهبة من جانبه تجاهها ، وفضلت عليه ابن المستشار الذى يتفق وطبقتها مما جعله يعترف « بأن القلب فى أهوائه لا يعرف المبادىء ، وهيهات أن تتعارض المبادىء الشعبية مع الحب الارستقراطى » ، يضاف إلى ذلك أن هذا الفارق كان له أثره بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن أبنة عامل المطبعة ، فرغم حبه الشديد لها فإن أسرته لم توافق على زواجه منها بسهولة ، كما أنها رفضت زواج أخيه من أبنة زنوبة العوادة لعدم أهلية هذا الزواج .

ورغم هذ التصوير فى تأثير الفوارق بين الطبقات بحيث يكون لكل طبقة مكانتها فى الزواج فإنه من غير المنطقى اطلاق هذا القول على علاته ، ففوارق الطبقة وفوارق السن أيضاً لم تكن وحدها هى التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة خصوصا إذا تواجد حب متبادل بين رجل وأمرأة ، فقد كانت التجربة العاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طرفين متناقضين تماما ، فالجانب العاطفى عند كمال تمثل فى الوفاء والعطاء والعشق الروحى [١] . أما عايدة فقد كان المطلب الأول عندها هو شغفها بأن تكون فتاة أحلام كل ما يتصل بها من الشباب ، وشتان ما بين فكر كل منهما [٢] .

بهذا التناقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه ، صور نجيب محفوظ الانسان المصرى تصويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه : « إن نجيب محفوظ « أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يطلع قارئه على أسرارها ودقائقها » [٣] .

---

(١) نجيب محفوظ : قصر الشوق ، ص ٢٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٥ .

(٣) الجمهورية : فى ٦ فبراير ١٩٥٧ ، تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

وحين نرجع إلى ما كتبه نجيب محفوظ عن الأسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على أسرته ، وخضوع المرأة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخالفة أمره ، وارتدائها الحجاب ، يتضح أنه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حول ضرورة تغيير وضع المرأة المصرية ، ودعوته إلى السفور ، وبالرغم من الأفكار التى وردت إلى مصر حول أن الحرية الشخصية أصبحت حقا لكل انسان ذكرا كان أو أنثى فإن الطبقة المصرية الوسطى كانت بصفة خاصة هى المحافظة على التقاليد ، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب الماضى ، وتخشى الخروج عليه ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، فمن خلال المعركة بين القديم والجديد ، والصراع بين التراث والموروث ، والنقلة الحضارية التى حدثت فى مصر ، نجد أن أسرة أحمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنها فى بين القصرين ، ففى بين القصرين كانت الشمس والأجرام السماوية ، وليست الساعة هى التى تمثل المواقيت بالنسبة لهذه الأسرة ، فالفجر يعنى استمرار دقات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا ، كما يعنى استعداد الزوجة لاعداد فطور للأسرة ، والصباح يعنى استعداد الأسرة لاستقبال يوم جديد ، ومغيب الشمس يعنى الخلود إلى الراحة وجلوس الأسرة فى مجلس القهوة [١] .

أما فى السكرية فقد خطت الأسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثة فدخلت الكهرباء منزلها ، وسمع المذياع من داخل جدرانها [٢] ، وانشئت الجامعة ، والتحق بها أحفاد أسرة عبد الجواد ، يضاف إلى ذلك أن السيد نفسه أفاد من أثر هذه المدنية أثناء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك .

---

(١) سيزا احمد قاسم : الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٦٠ ، دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، نوقشت بآداب القاهرة عام ١٩٧٨ ، ص ٧٢ .

(٢) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ٨٣ .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفوظ التى رصدها بوعى وبنضج وحساسية شديدة عكست واقع مجتمعنا المتناقض ، وكانت « احياء لدنيا كاملة من الناس بأفكارها وآرائها واحساساتها ، وتحيزاتها ومغامراتها » [1] . ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ أن صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين الى أن انتهى بها فى السكرية ، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة ، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة أخرى ، ولكن هل يعنى هذا أن أدب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين ؟! .

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس ، ولا بدقة التحليل العلمى ، شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى ، بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، فنجيب محفوظ أتخذ من الأحداث الاجتماعية مادة وصل عن طريقها إلى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل ما زلنا نعانى من بعضها حتى الآن . كما يلاحظ أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل ، ولم يرسم طريقا للخلاص منها ، وإنما أشار بأسلوبه الروائى إلى مواطن الضعف ، ومكمن المفاسد وأبان العلة وشخص الداء دون أن يوضح ما هو الدواء ، بل كان هدفه هو ايقاظ الرأى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الأفراد وإلهاب شعورهم واذكاء حماسهم نحو ايجاد الطرق الموصلة للاصلاح ، خصوصا وأن التنبيه إلى الأحوال الاجتماعية غير المتوازنة يهدف إلى وأد الشلل الفكرى فى الأمة ، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من أجل اعادة التوازن بعد فهم الناس لأخطائهم .

---

(١) على الراعى : دراسات فى الرواية المصرية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ص ٢٢٠ .

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح أنه سار جنبا إلى جنب مع الجانب الاجتماعى ، وإن تعارض معه أحيانا وتشابك معه أحيانا أخرى ، فمن خلال أسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل اعلان الحماية ، ووفاة السلطان حسين كامل ، ونفى سعد زغلول ، وقيام الثورة ، ووفاة سعد ، وعيد الدستور ... الخ . فعن الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وما آل إليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وما دار فى خلدهم ، صور نجيب محفوظ التاجر أحمد عبد الجواد فى صورة رب الأسرة المستاء من اختفاء السلع ، وارتفاع أسعارها خلال سنوات الحرب ، والذى يلعن جنود الاحتلال الذين يسلبون الأهالى موارد رزقهم ، وفى نفس الوقت يذكرنا بما تردد من رغبة الأهالى على لسان أمينة فى عودة الخديو عباس إلى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمانية بعد أن عزله الانجليز ، حيث تقول « ربنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس » ، كما يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخلافة على لسان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد إلى البلاد أفندينا عباس مؤيدا من جيوش الخليفة .

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يسوقه على لسان ياسين من أن ينتصر الألمان وحلفاؤهم الأتراك حتى تسترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها ، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد إلى مصر .

وعن ثورة ١٩١٩ ونفى سعد زغلول وأصحابه إلى مالطة ، واستياء طبقات الشعب المصرى لذلك النفى ، ربط نجيب محفوظ بين هذا الحدث وبين نفى عرابى إلى سيلان فأوضح ما أصاب الناس من جزع وتساؤلهم « أيجرى نفس المصير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن إلى الأبد ، فتموت هذه الآمال الكبار ، وهى لا تزال فى مهد الأزهار » .

ونتيجة لهذا الاستياء تقوم الثورة ويشترك فيها فهمى ، مما أثار ردود فعل متباينة فى محيط الأسرة ، وتتطور المظاهرات إلى معارك بين الشعب والانجليز لتشترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة « يحيا الاستقلال ونموت ويحيا الوطن ، ويحيا سعد » .

ونتيجة لذلك يتصدى الانجليز لهذه المظاهرات بعنف ، ويسقط العديد من الشهداء ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شوارع القاهرة وحاراتها . فيشير نجيب محفوظ إلى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيته [١] ، وإلى ما أصاب ابنه ياسين فى المسجد ، ويفرج عن سعد ويتصافح الجميع ، ويتبادلون التهانى ، وتقوم المظاهرات التى عمت البلاد ابتهاجا بعودة سعد ، ثم يموت فهمى خلال هذه المظاهرات برصاصة طائشة ، بما يشير به الكاتب إلى تطور الأحداث والايحاء بانتكاسة الثورة والنهاية المنتظرة لها .

والملاحظ على موقف الطبقة البرجوازية المصرية من هذه الثورة أنه بالرغم من أن هذه الطبقة قد باركت الثورة ، فإنها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون أفرادها وقودا لها ، فالثورة عند أحمد عبد الجواد التاجر من الأشياء الجديرة بالاحترام ما دامت بعيدة عن أولاده وعن بيته ، أما إذا أشترك فيها أبناؤه انقلبت فى نظره إلى هوس ، وخروج على المألوف ، مما نتج عنه انضمام ابنه فهمى طالب الحقوق إلى حركة الجهاد الوطنى دون علم أبيه حتى لا يتعرض لثورته وغضبه .

كما يلاحظ أنه فى وصف نجيب محفوظ لموقف الشعب المصرى من ثورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحدث من كل زواياه ، فليس أبطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ، كما أنهم ليسوا بمنصرفين عنها ، ففهمى ثائر على الانجليز ، يشارك فى الثورة بفكره ودمه ، وزينب فى الجانب الآخر تظهر غضبتها على سعد زغلول ، وبين الطرفين توجد درجات من الحماس .

---

(١) نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠ .

وهكذا صور نجيب محفوظ البيئة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تصويرا قال عنه الدكتور طه حسين : « لست أعرف قاصا صور الثورة المصرية فى أعقاب الحرب الأولى كما صورها نجيب محفوظ ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة ، وصورها متغلغلة فى أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا ، وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما ، وصورها بكل ما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم ، وجود الشيوخ بأموالهم ، وجود الأمهات والأخوات بأمانيهم ودعائهم ، وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم ، وغدرهم واستخفافهم بكل شيء ، وبكل انسان وبكل مكانة ، وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين » [١]. وتستكمل قصر الشوق ما توقفت عنده بين القصرين فتسرد تاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفاته ، فتظهر خديجة معبرة عن رأى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهية لعدلى وثروت ، فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ، ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار .

وبعد الضربة التى أصابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى أعقبت استقالة سعد ، فرمز إلى أن هذه الاستقالة قد أدت إلى أزمة دستورية ، وإلى ضياع السودان ، كما أشار إلى أن قتل السردار كان ضربة موجهة إلى وزارة سعد بهدف التخلص منها .

وعن فجيعة الأمة المصرية فى موت سعد زغلول ، عكس نجيب محفوظ صورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصوير كمال ، وهو يهتف من الأعماق لرجل الثورة والنفى والحرية .

---

(١) الجمهورية ، العدد ١١٤٣ فى ٦ فبراير ١٩٥٧ ، تحت عنوان « بين القصرين » لطه حسين .

وعن الروح الرجعية التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت أن تعصف بمكاسب الشعب فى جهاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة صدقى ، وتصريح وزير خارجية بريطانيا صمويل هور بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صلاحية أولهما للعمل ، ورفض الأمة للثانى عبر نجيب محفوظ فى السكرية عن أحاديث ومشاعر الناس حول هذا التصريح بقول أحدهم : « يجب أن يرد على هور وتصريحه المشئوم » وقول أخر : « ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا » .

ويقف نجيب محفوظ إلى جانب حرية الشعب ، وتطلعه إلى استكمال مقومات المجتمع الأمثل ، واحساسه بكيانه ، ويشاركه فى قضاياه فينتقد الحكام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة كمال الذى وعى حاجة الأمة إلى الثورة ضد طغيان هؤلاء الحكام واصفا محمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وتوفيق نسيم بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعموا أنهم أوصياء على شعب قاصر [١] .

وعن دور الأحزاب السياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لسان عدلى كريم رئيس تحرير مجلة الانسان الجديد فيقول : « الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى أن واحد . كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا ، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ، ومطهرها من الشوائب والخبائث كما أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة إلا أننا نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه

---

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ٧٨ .

وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية .. ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء ، أما مصر الفتاة فهى حركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا ، وهى ليست إلا صدى للعسكرية الألمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة ، وتقومان على الاستبداد ، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية . إن الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغى استئصاله » [١].

وفى تقديرنا أن نجيب محفوظ رمز باسم عدلى كريم إلى الكاتب التقدمى سلامة موسى خصوصا وأنه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء فى كتابات سلامة موسى المتبعثرة ، كما رمز بالانسان الجديد إلى المجلة التى أسسها سلامة موسى فى منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والمعنونة « المجلة الجديدة » .

أما عن تقييم الأحزاب الذى طرحه نجيب محفوظ فإننا نرى أنه كان لكل حزب دوره فى الحياة السياسية المصرية ، سواء أكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا ، وأنه إذا كان قد انحاز إلى حزب الوفد فإنه انحاز إلى المبادىء التى نادى بها الوفد أثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التى تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم [٢] . وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطنى بأنه كان حزبا تركيا رجعيا ، فمن الصعب أن ننكر إن هذا الحزب نجح فى توجيه جماهير الشعب المصرى فكريا ونفسيا فى فترة من أحلك الفترات التى مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وأنه هو الذى أضاء الطريق لقيام ثورة ١٩١٩ .

وعن تزوير الانتخابات فى مصر وسقوط النحاس ومكرم ، يعبر نجيب محفوظ عما يجيش فى صدر الشعب فى صورة كمال الذى يقف

---

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ٨٧ .
(٢) نفسه ، ص ١٤١ .

عند الديمقراطية والدستور فيقول : « انتخابات مزورة ، وكل شخص فى البلد يعلم أنها مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميا ، وتحكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم وأن اللصوص سرقوا بالتالى مناصبهم وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادى الذى كفر بالمبادىء والخلق ، وآمن بالزيف والانتهازية [١] .

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفوظ دور اليساريين وأفكارهم حول الثورة الأبدية ، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل أزمة الحرية .

وهكذا يتضح تطور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية ، فبين القصرين مثلت حركة الانتماء إلى الحزب الوطنى ، وارهاصات تكوين الوفد ، وموقف فهمى البطولى إبان ثورة ١٩١٩ .

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتماء الوفدى والانتماء اليسارى ، بينما السكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد أن عجز حزب الوفد على أن يقدم حلولا للمشكلات الاجتماعية ، والطبقات الشعبية التى آزرته فى كفاحه الوطنى .

وهكذا رصدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صورة روائية أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال ، ومما يلاحظ على هذه الكتابات أن الثوريين كانوا على هامش الحياة السياسية لا فى قلبها ، وأنهم جميعا كانوا من صغار البرجوازيين الذين لم يتلقوا المبادىء الثورية عن طريق المعاناة الطبقية ، ولكن عن طريق قراءاتهم وثقافتهم العقلية ، كما يلاحظ أنه بالرغم من الأحداث التاريخية المعروفة التى ذخرت بها الثلاثية فإنها أولا وقبل كل شىء كانت عملا روائيا لا

---

(١) نفسه ، ص ١٤٩ .

تاريخيـا ، وإذا اعـتمدنا عليها فى دراســـتنا للمجتمع القـاهرى فى فترة مـا بـين الحـربين فـينبـغى أن نتـقـبل مـا بهـا بـحـرص وحـذر شـديدين خصــوصا وأن العمـل الروائى يـعتـمـد عـلى الخيــال بجـانب الواقــع ، وقـد يسـتلزم ذلك كـمـا يذكـر نجـيب مـحفـوظ اسـتـخـدام عـمليات المكر والحيل [١] . ومن هنا فإن من المغـامرة غيـر العملية الاعـتماد عليـها ، وإن كان يمكن الاستئناس بها فى التعبير عن الجو النفسى السائد خلال هذه الفتـرة ، فنجيب مـحفـوظ حين كتب الثـلاثية لـم يؤرخ لمصـر ، وإنما كان دافعـه الرغبة الفنية الخـالصة التى يظللهـا أحيانا الخيـال الواسـع ، يضـاف إلى ذلك أن عـلاقـته بالتـاريخ كـانت عـلاقة الفنـان ، وليست عـلاقـة المفكر السياسـى أو المؤرخ .

وبعـد أن تعرضنا للثـلاثية يطـرح علينا سؤال نفـسه وهـو : مـا هى الطبقة التى يمكن أن تنسب إليها كتابات نجيب محفوظ ؟ الواقع أن الآراء اختلفت حـول هذا الموضـوع ، وخـرج النقـاد بمقـالات تحلل أدب نجـيب مـحـفـوظ تحليـلا طبـقيـا ، وانـتـهى بعضــهم إلى أنه أديب البــرجـوازية الصغيرة أو المتوسطة الصغيرة [٢] ومن أبرز هؤلاء النقـاد كان الدكـتور عـبـد العظيم أنيس الذى رأى أن تعـبـيـر نجـيب مـحـفـوظ عن البـرجـوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا ، ومن هنا لـقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها [٣] .

وسمـاه البعض الآخر بأنه الكاتب التـقدمى ، وأديب الطبقـة العاملة مـشــيـرين فى ذلك إلى أن تـصـويره لواقـع المجـتـمع المصــرى من خـلال الثلاثية كاد يقـترب من الواقعية الاشـتـراكية ، حيث أن واقعيـة الثلاثية قد

---

(١) الآداب : يونيو ١٩٦٠ ، حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة .

(٢) الكاتب : العدد الثانى والعشرون ، فى يناير ١٩٦٣ ، مـقال للدكتور غنيمى هلال تحت عنوان « أزمة الوعى السياسى فى قصة السمان والخريف .

(٣) الرسـالة الجـديدة : العـدد التـاسـع والعـشـرون ، فى أغسـطس ١٩٥٦ ، ص ٤٤ ، تحت عنوان : حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم أنيس .

حملت فى ثناياها بصيصا خافتا من الضوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعالجة الفساد القائم ، وهذا من أسس الأيديولوجية الاشتراكية التى ترى ضرورة فهم المستقبل والادراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه ، والايمان بامكانيات الانسان فى صنع مستقبله ، والوصول بنفسه وبمجتمعه إلى واقع أفضل يكفل للانسان حريته وكرامته (١) .

يضاف إلى ذلك أن رؤية نجيب محفوظ لمشكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبناء التركيبى للأحداث ، ودلل أصحاب هذا الرأى على صحة تسميتهم بما أدلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى أعدها له ضياء الدين بيبرس بأنه يؤمن بتحرير الانسان من الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه ، وأن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة وبتحقيق الديمقرطية بأشمل معانيها (٢) . كما دللوا بما أشار إليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشديد مع الماركسيين حيث قال : « لا أستطيع أن أعتبر نفسى ماركسيا رغم التعاطف الشديد » (٣) . يضاف إلى ذلك أنهم تمسكوا بما ذكرته إحدى شخصيات الثلاثية عن الثورة الأبدية والاضطهاد والآلام والعذاب وما شابه ذلك .

والواقع أن نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حياديا فى كتاباته ، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة ، ودليلنا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصدر عن واقعية اشتراكية حين قدم الحل الدينى متمثلا فى الفكر اليمينى الذى يمثله الاخوان المسلمون ، والمتجسد فى شخصية عبد المنعم ابراهيم شوكت كعلاج لتردى الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية حيث يرفض لقاء الظلام على

---

(١) جهاد عبد الجبار : ثلاثية نجيب محفوظ : رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ١٩ .
(٢) الهلال : محاكمة نجيب محفوظ ، ص ٤١ .
(٣) نفسه .

بسطة السلم أو فوق السطوح مع بنت الجيران ويطلب أن يكون جزاء ذلك الرجم [١] ، كما يعتبر الالحاد هروبا من واجبات الانسان حيال ربه ونفسه والناس [٢] .

وفى نفس الوقت يعطى للحل الماركسى متمثلا فى أحمد ابراهيم السبيل لحل مشكلات المجتمع عن طريق الايمان بالعلم وبالانسانية وبالغد « وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد » . هذا بالاضافة إلى أن شخصياته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة ، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلف من ممثلى الفكرين الاسلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر اشارة إلى التتابع المرحلى للفكر الانسانى ، وهذا ما يرغب فيه نجيب محفوظ ، من أن يشير إلى أن لكل عصر فكره الخاص به ، وإن لم يميز أحد هذين الفكرين على الآخر [٣] .

وإذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بأنه أديب البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى وأديب الطبقة العاملة ، فلا ندرى هل الأديب لابد أن يكون كاتبا لطبقة معينة بذاتها ، أم أن أدبه ينبثق من كافة الطبقات ويعود إليها ، وهل من الضرورى وجود طبقة معينة يعبر فيها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقة يعبر الكاتب من خلالها .

لقد رفض نجيب محفوظ فكرة أنه يوجه انتاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته ، وأوضح أنه يصور النماذج التى تعيش معه أكثر [٤] ،

---

(١) نجيب محفوظ : السكرية ، ص ١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٣) جهاد عبد الجبار : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٤) روز اليوسف : العدد ١٥٣١ ، فى ١٤ اكتوبر ١٩٥٧ ، تحت عنوان « الكاتب والطبقة التى يعبر عنها » .

وأنه إذا كانت له ايديولوچية فهى ليست فى عقله ، ولكنها فى قلبه لا يكتب عنها وإنما تعمل فى داخله (١) .

ومع كل ذلك فإننا نرى أن نجيب محفوظ بالرغم من حيادية كتاباته ، فإنه كان أقرب إلى التعبير عن الطبقة الوسطى ، وأقرب تفهما لقضايا هذه الطبقة من غيره من الكتاب لدرجة أنه استطاع أن يعبر بصورة واقعية صادقة عن أدق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل ، وكأنه قد عايش هذا المشاكل وتعايش معها ، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصويره للثلاثية حيث يقول : « وبالنسبة للثلاثية أعتقد أن فيها وجهة نظر مؤكدة » (٢) .

وهكذا اتبطت الثلاثية بالانسان المصرى ، وعبرت عما يعن له من مشاعر وأحاسيس ، كما أنها سايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتناسب مع مستوى القارىء المصرى حتى أصبحنا نرى فيها حياتنا ، وقصص كفاحنا وأزماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجة أن أدبه أصبح ظاهرة قومية نعتز بها كما اصبح ظاهرة عالمية تمثلت فى حصوله على جائزة نوبل .

* * * * *

---

(٢) نجيب محفوظ : أتحدث اليكم . بيروت .د.ت ، ص ٣٢ .

(٣) الكاتب : فى يناير ١٩٦٣ ، ص ١٨ ، لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دوارة تحت عنوان « رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ » .

٦ - المؤرخون الهواة
ودورهم في كتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر [١]

يحلو للكثيرين من غير المؤرخين الكتابة فى التاريخ ، والغوص فى أعماقه ولكن ذلك لا يعنى أن كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يعد مؤرخا ، بل لابد أن تتوافر فيمن يكتب التاريخ من الصفات والاستعدادات والظروف التى تؤهله للقيام بهذا العمل ، خاصة وأن الدراسات التاريخية الحقة ليس من السهل كتابتها ، وقد كان « تولستوى » على حق حين ذكر رائعته الحرب والسلام « أن التاريخ هو دراسة حياة الشعوب والبشر ، وأن الإمساك بهذه الحياة ووضعها فى كلمات أمر صعب ، بل قد يكون مستحيلا » .

ومع ذلك فهناك من المؤرخين الهواة من فاق بقدراته وملكاته ، ومعايشته للحدث بعض المؤرخين الأكاديميين ، ويشهد على ذلك ما كتبوه وأصبح بصمة واضحة فى جبين التاريخ المصرى يصعب الاستغناء عنه أو مجرد تجاهله ، ومنهم من تجاهل منهج البحث التاريخى ، وساير إتجاهه الفكرى وانتقى من الأحداث ما يوائم تصوره ، ومنهم أيضا من يغلب اسلوب حرفته على كتابته خاصة إذا كان صحفيا أو أدبيا .

ونظرا لأن موضوع الندوة يقتصر على الربع الأخير من هذا القرن ، فإننا سنكتفى بأن نعرض لكتابات المستشار طارق البشرى ، كنموذج لمؤلفات كاتب ، يتميز بالنظرة الشاملة ، ويمثل الاتجاه الاسلامى فى كتابة التاريخ معظم مؤلفاته ، ونعرض لكتابات الدكتور رفعت السعيد كنموذج لمنهج أحد اليساريين المصريين فى الدراسات

---

(١) قدمت هذه الدراسة فى ندوة حصاد المدرسة التاريخية المصرية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة والتى أقامها مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية CEDEJ فى الرابع والخامس من نوفمبر ١٩٩٥ .

التاريخية ، ولكتابات محسن محمد ، كأحد الصحفيين العاشقين لوثائق تاريخ مصر الحديث ، ولكتابات نجيب محفوظ ، كأحد الأدباء الذين تركوا بصماتهم على التاريخ المصرى الحديث وفيما يلى نعرض لدور هؤلاء :

١ - المستشار طارق *البشري* : (١)

مع أن ثقافته ثقافة قانونية ، والقانونيون غالبا ما ينصب اهتمامهم على معالجة التاريخ من هذه الزواية ، وعلى الرغم من أنه يكتب التاريخ من منطلق الهواية لا الحرفة ، فإن كتاباته تتميز بالنظرة الشاملة ، وبالبحث الدقيق الذى لا يقدر عليه إلا قلة نادرة من المتخصصين فى تاريخ مصر .

لقد ألزم طارق البشرى نفسه أن يحطم الحواجز القائمة بين الهواة من المؤرخين ، والأكاديميين منهم ، واستطاع بآفاقه المفتوحة ، أن يكتب فى تاريخ مصر المعاصر مؤلفات تتميز بالمعرفة الكاملة للأمور ، لدرجة أن ما كتبه يعد إضافة لتاريخ مصر المعاصر .

لقد توزعت حياة طارق البشرى بين القانون والتاريخ ، وكأنه امتطى حصانين ، فامتلك زمامهما معا ، وأصبح كاتبا له مذاقه الخاص المتميز . تفيض كتاباته بثقافة عميقة متعدد ة الروافد ، برز أثرها الفعال فى تكوين منهجه الفكرى .

---

(١) ولد بالقاهرة فى أول نوفمبر ١٩٣٢ فى أسرة تحيطها هالة دينية واضحة فجده الشيخ سليم البشرى كان عالما من علماء الأزهر المرموقين ، ووالده كان رئيسا لمحكمة الاستئناف .

وبعد أن حصل طارق البشرى على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة فى عام ١٩٥٣ عمل بمجلس الدولة منذ عام ١٩٥٤ ، كما عمل نائبا لمجلس الدولة فى عام ١٩٨٥ . وتولى إدارات الفتوى بالعديد من الوزارات ، وعمل مستشارا قانونيا لعدد من الوزارات والإدارات .

ضمن لقاء مع المستشار طارق البشرى بسمنار كلية البنات جامعة عين شمس فى الثلاثاء ٥/١/١٩٩٣ . ويشغل الأستاذ طارق البشري حاليا منصب النائب الأول لرئيس مجلس الدولة لشئون الفتوي والتشريع .

ولعـل أبرز مـؤلـف تاريخى ظهـر فى أوائل السـبـعينات من هذا القـرن ، كان كـتابه « الحـركة السـياسـية فى مصـر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ » [١] الذى تعـرض فـيـه لدراسة الحـركات السـيـاسـيـة والشـعبـيـة خـلال هذه الفتـرة ، بمـا فيهـا من قصـور وإيـجابيات ، تابع أوضـاع المجتـمع المصرى من خـلالهـا بطريقـة تتـمـيـز بالاعـتـدال فى الرأى ، والبـعـد عن الهـوى والعصـبيـة ، كما قـام باسـتـقصاء الحـوادث بدقة ومـوضـوعيـة ، تدل على إلمامه بأصـول البحث التـاريخى ومناهجه ، فـقدم لنا رؤية عمـيقـة وجذابة لشـتى الـدراسات السـيـاسـيـة الموجـودة فى مصـر فى ذلك الوقت ، وتطرق إلى الظروف التى دفعت بالضـباط الأحرار الى التعجيل بالتحرك ، وتقديم سـاعـة البدء إلى ليلة الثـالث والعشـرين من يوليو ، بدلا من الخـامس من أغسـطس ١٩٥٢ .

حقيقة إن من يتحمص هذه الدراسة ، يجد فى ثناياها إعجاب طارق البشرى بالفكر اليسـارى ، وعدم تحمسـه للاخوان المسلمين ،، ولكنه قد راجع رأيه فى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، التى صدرت فى عام ١٩٨١ فكتب مـقدمة تقـترب من السـبعين صـفـحة أشـار فيـها إلى الأسـباب التى دفعـتـه صـراحة إلى مـراجعـة رأيه واعـتـرافه بالحـركة الاسـلاميـة كعنـصـر أساسى وجوهرى فى إدارة دفة السياسة المصرية .

يضـاف إلى ذلك أن كـتـابه « المسلمـون والأقـباط فى اطـار الجمـاعـة الوطنية » الذى صـدر فى عام ١٩٨٠ كشف عن انتقاله التـدريجى لصـالح الحركة الاسلامية .

وعلى أية حال يمكننا أن نرجع الأسبـاب التى جعلت طارق البشرى يعدل عن رأيه تجاه الفكر اليسـارى إلى أصوله الاجـتماعية ، خـاصة وأن جده الشيخ سليم البـشرى كـان من كبـار علماء الأزهر المرمـوقين ، هذا

---

(١) نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٧٢ .

بالاضافة إلى أن المناخ العام الذى كانت تعيشه مصر فى بداية الثمانينات ، ربما كان السبب فى ذلك أيضا .

وللمستشار طارق البشرى دراسة هامة بعنوان : « الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو » شملت الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ وهذه الدراسة كما يذكر صاحبها من الموضوعات الساخنة التى تدور حولها المعارك السياسية ، وقد عالجها بطريقة تبلور الدروس المستفادة ، خاصة وأن آثارها لا تزال ممتدة وأوضاعها ما زالت متداخلة فى غالب شئوننا السياسية والاقتصادية [١] وتعد هذه الدراسة تكملة تاريخية لكتابة الحركة السياسية فى مصر من ١٩٤٥ - ١٩٥٢ .

لقد كتب طارق البشرى دراسته التاريخية إشباعا لرغبة لا التزاما بمهنة ، ونظر إلى التاريخ كوسيلة فعالة لتثقيف العقول وتوجيه المواطنين إلى المثل العليا فى حياتهم القومية ، وتعليمهم تاريخ بلادهم بطريقة صحيحة خاصة كما يذكر أن تجارب التاريخ ودروس الواقع لن يبقيها المدح ولن يقضى عليها الذم ، لأن كلا من المدح والذم من شأنه أن يذهب بريحها ، ولأنهما يستويان فى جعل أى مرحلة تاريخاً ماضياً .. ولن يبقى أى تاريخ حاضراً وحيا إلا الوعى بآثاره سلبا وايجابا على سواء [٢] .

وفى النهاية يمكن القول أن ما كتبه طارق البشرى فى تاريخ مصر يختلف عما كتبه عبد الرحمن الرافعى وغيره من القانونيين فالرافعى كتب تاريخ مصر من وجهة نظر الحزب الوطنى ، فكل ما فعله الحزب الوطنى من وجهة نظر الرافعى صحيح ، كما أنه تتبع تاريخ مصر زمنيا واقتصر فى معالجته التاريخية على الجانب السياسى بهدف ابراز دور مصطفى كامل ومحمد فريد ، يضاف إلى ذلك أنه كان يستبعد حياد

---

(١) انظر المقدمة ص ٥ ، ٦ .
(٢) انظر مقدمته لكتابه الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ، ص ١٦ .

المؤرخ لأن ذلك على حسب قوله يشبه أن نقول للشاعر لا تكن عاطفيا أو نقول للرسام لا تكن حساسا أو نقول للمطرب لا تهتز أثناء الغناء ، بينما كتب طارق البشرى تاريخ مصر من زاوية معايشته لتجربة تاريخية وخبرة مجتمعية ، وبطريقة تتسم بالتحليل ، ومع أنها لا تخلو من وجهة نظر ، فإنها حيادية إلى حد كبير وتتسم بالوعى النقدى اليقظ والتمكن من أصول فن التاريخ ، والحاسة الأدبية والفنية الواضحة ، والصدق والانصاف فى تدوينها وشرحها وتفسيرها . وهنا الفرق كل الفرق بين من يكتب ويبحث لأجل الحقيقة ، وبين من يكتب ويجادل ارضاء لعواطفه الخاصة . وفى النهاية يمكن القول أن ما كتبه طارق البشرى فى تاريخ مصر يعد بحوثا علمية من الطراز الأول تشرف وبحق علماء مصر ومؤرخيها .

٢ - الدكتور رفعت السعيد :

يملك الدكتور رفعت السعيد ـ منذ أن عرفته أخبار اليوم صحفيا ـ حاسة اجتماعية ثورية فتحت للفكر الاجتماعى فى مصر طريقا يستحق التقدير والمتابعة .

ومؤلفات رفعت السعيد عديدة يوجد بين دفتيها بيانات ومعلومات لا غنى للمثقف عنها . وقد مثلت معظم مؤلفاته التيار الماركسى فى منهج الدراسات التاريخية ، فتناولت التجمعات الطبقية ، وجوانب الصراع الطبقى وتطورها فى فترات تاريخية متلاحقة ، كما تناولت القوى الاجتماعية فى مصر ، والنضال النقابى والسياسى للطبقة العاملة وتطور أساليبه . والارتباط الوثيق بين قضية الاستقلال الوطنى ومطالب الجماهير ، والمنابع الفكرية للعمل الاشتراكى ، وموقف الحركة الشيوعية من القضية الفلسطينية .

ومن هذه المؤلفات نذكر : « تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥ » ، « اليسار المصرى ١٩٢٥ ـ ١٩٤٠ » ، « تاريخ

المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠ - ١٩٥٠ » ، « الصحافة اليسارية فى مصر ١٩٢٥ ـ ١٩٤٨ » ، « اليســار المصـرى والقضية الفلسطينية » ، و « القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية » .

بالاضافة إلى هذه المؤلفات ، كتب رفعت السعيد سلسلة من المقالات التاريخية فى مجلة الطليعة وعددا من المقالات التاريخية وغير التاريخية فى الصحف اليومية ، خاصة « الأهالى » صحيفة حزب التجمع .

وفى هذه المؤلفات والمقالات برزت إنتماءات رفعت السعيد وميوله فصور الحركة الشيوعية بأعظم الصور الايجابية ، وهذا من حقه كمفكر أن يستخرج من تراث البشرية ما يتفق مع أفكاره ويلائم هواه ، أما وصفه مؤرخاً فنعتقد أن ذلك لا يتفق مع منهج البحث التاريخى الذى يناقش الحدث بما له وما عليه .

لقد انتقى الدكتور رفعت السعيد من الأحداث ما يوائم تصوره ، وتأثره فى كتاباته بالمؤثرات الحزبية والسياسية ، وبما يعتنق من نظريات وقيم مما جعله يدير ظهره فى بعض الأحيان لمنهج البحث التاريخى .

وإلى جانب ذلك فقد نصب نفسه فى بعض كتاباته قاضياً يوزع أحكام الاستحسان والاستهجان ، علما بأن العدالة فى الأحكام التاريخية لا تتحقق بسهولة .

ومع كل ذلك فلا ينكر أحد أن الدكتور رفعت السعيد أوتى من العلم والثقافة حظا كبيرا مكنه من الغوص فى أعماق الماضى واستخراج ما يتناسب مع أفكاره وتصوراته ، لذلك فنحن نفضل أن نضع بجانب اسم رفعت السعيد مفكرا ، وليس مؤرخا ، فثقافته غنية ومتعددة الروافد ، وأفكاره المتقدمة والمتنوعة توظف التاريخ لخدمة أهداف سياسية .

٣ - الأستاذ محسن محمد :

تكمن أهمية كتابات محسن محمد فى أنه استقى معظم مادتها التاريخية من الوثائق الأصلية خاصة البريطانية والأمريكية ففى كتابه « تاريخ للبيع » [١] قدم العديد من الأسرار الهامة التى أحاطت بمصر خلال الحرب العالمية الثانية منها : موقف القصر والحكومة من الألمان ، والقصة الكاملة لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ من خلال الوثائق البريطانية خاصة وثائق وزارة الخارجية فى لندن ، والتقارير التى كتبهاالسفير البريطانى فى مصر إلى حكومته .

وقد تعرض محسن محمد لتاريخ مصر من خلال الأحداث التى أثارت الرأى العام المصرى لفترة طويلة بعد أن أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه « الإسلام وأصول الحكم » فى ابريل ١٩٢٥ والأحداث المتتابعة التى أعقبت ذلك من خلال الوثائق البريطانية المحفوظة فى دار الوثائق العامة فى لندن ، والوثائق الأمريكية المحفوظة فى الأرشيف الوطنى بواشنجطن .

وفى كتابه « الشيطان - تاريخ مصر بالوثائق السرية والأمريكية » [٢] تعرض محسن محمد للمندوب السامى البريطانى « لويد » بالدراسة فأوضح أنه خلال خمسة وأربعين شهرا حكم فيها مصر حاول إتباع سياسة الحزم والقهر مع المصريين ، وأن يجعل من نفسه الحاكم الحقيقى لمصر ، والا يكون للحكومة المصرية سوى سلطة إسمية فقط ، كما حاول تحقيق مصالح الإمبراطورية البريطانية فى مصر أولا وقبل أى شىء أخر .

وفى كتابه « سعد زغلول مولد ثورة - شرارات ثورة ١٩١٩ بالوثائق الأمريكية والانجليزية » [٣] تعرض محسن محمد لدور سعد

---

(١) نشرته دار أخبار اليوم فى عدد يوليو ١٩٧٢ .
(٢) نشرته دار المعارف فى عام ١٩٨٢ .
(٣) نشرته مكتبة غريب بالقاهرة فى عام ١٩٨٨ .

زغلول فى السياسة المصرية قبيل ثورة ١٩١٩ وذلك من خلال توليه وزارتى المعارف والعدل ،وعلاقته بكل من « اللورد كرومر » ، و« اللورد إدوارد جراى » وزير خارجية بريطانيا وإلى جانب ذلك فلمحسن محمد مؤلفات أخرى تعرضت لفترات هامة من تاريخ مصر المعاصر من خلال الوثائق السرية البريطانية والأمريكية نذكر منها « سرقة واحة مصرية » (١) ، و « التاريخ السرى لمصر » (٢) ، و« أفندينا يبيع مصر » (٣) ، و « خمسة أيام هزت مصر » (٤)، و « من قتل حسن البنا » (٥) ، و « عندما يموت الملك » (٦) .

ومع أن هذه الكتابات قد اعتمدت على الوثائق الأصلية فى معظمها إلا أنها تفتقد إلى روح المؤرخ وبصماته فى النقد والتحليل وعلى الرغم من كونها عاملا من عوامل النهضة الثقافية الحديثة ، وبث الوعى لدى المواطنين بتاريخهم لكن مع ذلك كله فقد اتسمت بأسلوبها الصحفى الذى طبعت به وتغلب عليها .

---

(١) نشرته أخبار اليوم ضمن سلسلة كتاب اليوم (١٩٨٠) .
(٢) نشرته دار المعارف .
(٣) نشرته مؤسسة الأهرام .
(٤) نشرته مؤسسة الأهرام .
(٥) نشرته دار الشروق فى مارس ١٩٨٧ .
(٦) نشرته دار التعاون .

٤ - الأستاذ نجيب محفوظ كأديب [١] ترك بصماته علي التاريخ المصـــري :

أعمال نجيب محفوظ فى مجملها تعرضت لواقع المجتمع المصرى الذى يذخر بالمتناقضات ، ومن ثم قامت بتسجيل البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى ، بطريقة نبعت من علاقته المتميزة بعراقة هذا المجتمع وتطوره ، وكذلك من إرتباطه العميق بالقاع أخذاً وعطاءً ، بالاضافة إلى اعتماده على الدراسات التاريخية الجادة فى رواياته .

لقد تناول نجيب محفوظ بقلمه المبدع تاريخ مصر القديم فى أول مؤلفاته حيث نشر كتابه « مصر القديمة » الذى صدر فى عام ١٩٣٢ ، وتابع ذلك فى رواياته « رادوبيس » ، و« كفاح طيبة » وغيرها ثم تطرق إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر خاصة فى فترة ما بين الحربين كما حدث فى « الثلاثية » و « المرايا » وغيرها لدرجة أن رواياته عن مصر وشعبها التى تعدت الخمسين تعد بانوراما متسعة الأبعاد لكل مناخات مصر السياسية والإجتماعية خلال هذه الفترة ونظراً لأن موضوع الندوة يقتصر على الربع الأخير من هذا القرن فإن روايته المرايا التى تناولت تاريخ مصر المعاصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى صدرت فى عام ١٩٧٢ وروايته « يوم قتل الزعيم » التى تعرضت لأحوال المجتمع المصرى قبيل إغتيال الرئيس السادات والتى صدرت فى عام ١٩٨٥ يدخلان ضمن موضوع الندوة ، ولما كانت الرواية الثانية « يوم قتل الزعيم » من الروايات المعاصرة التى إتجهت إلى التركيز فى الحجم مع التوجه إلى الرواية السياسية بشكل مباشر فإننا سنكتفى بأن نعرض لها ، لنبين مدى إستناد نجيب محفوظ على البراهين التاريخية التى تأتى فى ثنايا رواياته وتؤدى وظيفتها وتقحم نفسها على القارىء

---

(١) ولد فى حى الحسين بالقاهرة فى عام ١٩١٢ ، ودرس الفلسفة خلال دراسته الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة .

دون أن تمنعـه من مـواصلة قـراءته الأدبيـة ، ولنوضح مـا إذا كـان الأدب الروائى يمكن أن يصلح كمادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ .

فى كتـابه « يوم قتل الزعيم » حـاول نجيب محـفوظ أن يجـمع كل أسـبـاب التـذمـر والانحـرافـات التى سـبـقت إغـتـيـال الرئيس الـسـادات مستـخدما فى ذلك الاسلوب الرمزى فلم يذكر السادات بالاسم بل إتخذ من بعض الأسـمـاء ستـاراً للتـعـبيـر عن فكرته ببـراعـة واضـحـة فـعلوان ورنده كانا مـخطوبين من أيام عبـد الناصر الذى كـان رمزا لآمال الفـقراء والمحرومين الضـائعة ثم جـاء عصر الانفـتاح فأصـبح زواجهـما مع جنون إرتفـاع الأسـعـار شـبـه مـحـال فـعلى الرغـم من اكـتظاظ « البـوتيكات » ومحـلات الأثاث بالبـضائع الفـخمـة ، فلم يستطيعا الزواج خـاصـــة وأن رواد هـذه الأمـاكن هـم المهـربون والطفـيـليـون والقـوادون الذين جـمـعـوا الملايـين وركبوا أفـخم الســيارات على حين كان الشـرفـاء يتكدسـون فى « البـاصـات » ووجـوههم تطل مـن الزجـاج المشـروخ مـثل المسـاجين يوم الزيارة وعلى الرغم من صـمـود علوان ورنده أمام قـسـوة الحيـاة خاصـة وأن الحب كان يـجمع بينهـما ، فقـد حاول أنور عـلام مديرهمـا الكهل فى العـمل والذى دب الثراء فى عـروقه نتـيـجة لأعـماله غـير المشـروعة حـاول وتمكن من دق الأسـفين بينهما حتى إنتهى الأمر بزواجه من رنده خطيبة علوان تحت تأثيـر مـصـاعب الحيـاة وعـدم قدرة عـلوان على إتمام الزواج منها ، ثـم محاولات هذا المدير تـزويج أخته جـولستـان العجوز الـثرية من علوان الشـاب ، وما أسـرع أن فشـل زواج المدير من رنده خاصـة وأنه أراد أن يجعل من زوجتـه قطاعاً عاماً فى خدمة القطاع الخـاص ، وانتهاء الأمر بانتـقام علوان مـن المدير من أجل حبـيبتـه التـاريخيـة التى اخـتطفهـا منه بضربه لكمة كانت القاضية .

وإلى جـانب ذلك تعـرض نجـيب مـحـفـوظ فى روايتـه إلى الهـوة السـاحـقة بين الـشـعـارات والحـقـيقـة ، وإلى مـجلس الشـعب الذى أصـبح مكانا للغناء بعـد أن كان مكانـا للرقص ، وإلى تفسخ القـيـم نتـيـجة لـغول

الانفتاح وإلى نغمة الأسى التى إنتابت الشعب المصرى خلال هذه الفترة وهكذا حاول نجيب محفوظ أن يجمع فى روايته كل أسباب التذمر التى سبقت مقتل السادات فى شكل فنى محكم ذكر فيه كل الحقائق دون جفاف وصور بإسلوبه الروائى ما حدث فى مصر خلال عصر الانفتاح بطريقة رمزية أوضحت المشاكل التى عايشها الشعب المصرى وتأثر بها حتى غيرت من نمط حياته إلى حد كبير . كما إستطاع سرد هذه الوقائع بطريقة شاملة الرؤية مزج فيها الأدب وفن الرواية بالتاريخ وأوجد نوعاً من الوحدة بينهما بإقراره للأسباب الانسانية والطبيعية للحوادث ، وإثباته أن خيال الأديب يمكن أن يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها ، وأن المعرفة كل لا يتجزأ ، وأنه يمكن للأديب أن يقترب من الحوادث السياسية والتطورات العلمية بشكل لا يؤثر فى روح التأليف التاريخى وشكله ومحتوياته وان كان يمزج بين الأفكار والحوادث والمبتكرات الفنية . ومع كل ذلك فينبغى أن نتذكر دائما أن الأديب أو الروائى بصفة عامة ليس مطالبا بعمق الدرس أو بدقة التحليل العلمى بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية ، واسعا فى مشاعره وخياله ، ومع أن العمل الروائى يعتمد على الخيال بجانب الواقع ففى رأينا أن نجيب محفوظ فى هذه الرواية جمع بين موضوعية العلم ، وذاتية الأدب . وان كانت علاقته بالتاريخ كانت علاقة الفنان وليست علاقة المؤرخ .

وفي النهاية يمكن القول إنه علي الرغم من البصمات الواضحة التي تركها بعض المؤرخين الهواة في تاريخ مصر ، وبالرغم من أن بعضهم شق طريقه داخل منعرجات التاريخ ومنحدراته بهدف الوصول إلي الحقيقة واثبات مقدرته كإنسان موهوب أوتي من العلم والثقافة حظا كبيراً فإن ذلك لا يعني أن كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا .

٧ - المرأة المصرية والتعليم الجامعي (١)

بعد أن افتتحت الجامعة المصرية رسميا في ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأي بعض القائمين علي أمرها ضرورة الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بها أدبيا وعلميا ، ومن أجل ذلك خصصت الجامعة ابتداء من العام الثاني من افتتاحها محاضرات خاصة بالسيدات تشمل تاريخ المرأة علي مر العصور ، وبالرغم من الحذر الشديد في اتخاذ هذه الخطوة خشية غضب المحافظين علي التقاليد ، ومفاجأة الرأي العام بشيء لم يستعد له فان بعض الصحف المصرية باركت ذلك الاتجاه وهللت له وشجعت علي دراسة العلوم النسائية للنساء موضحة أن النساء المصريات في حاجة كبيرة إلي من يصقل أفكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشاوة الجهل فطالبت جريدة « الظاهر » بانشاء جامعة للنساء حتي يتعلمن ما لهن وما عليهن فقالت « نريدهن متعلمات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات في تدبير المنزل والنظر في شئون أطفالهن ، فمن شاء اصلاح مصر وترقيتها حقيقة فليجهر معنا بضرورة لزوم جامعة للنساء يتعلمن فيها علم تدبير المنزل وتربية الأولاد (٢) وقد أيدت اللواء ذلك فطالبت بانشاء جامعة للنساء موضحة أن اصلاح البلاد لا يتم بدون انشاء مثل هذه الجامعة (٣) .

ولا يعني هذا أن اللواء في مناداتها بانشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادي به مصطفي كامل بضرورة فرض الحجاب علي المرأة ورفضه لفكرة التحرر من قيودها فقد حددت في مناداتها بانشاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم علي ما يساعد المرأة في تدبير شئون منزلها وتربية أولادها وتهذيب أخلاقها ليتكون منها امهات المستقبل .

---

(١) ألقي هذا البحث في سمنار كلية البنات جامعة عين شمس .
(٢) الظاهر : العدد ١١٤٩ في ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « جامعة النساء » .
(٣) اللواء : العدد ٣٣٧٤ في سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان « جامعة النساء الشرقيات » .

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة علي السير في خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة انشاء قسم نسائي بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر علي محاضرات في علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالاضافة إلي تدريس بعض الموضوعات الأساسية في علم الصحة والطب (١) .

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال في المساء فقد رأت الجامعة أن تكون الدراسة بها للنساء في الصباح حرصا علي تجنب التلاقي بين الجنسين داخل أروقتها .

وعلي الرغم من تعنت التقاليد وشدتها في ذلك الوقت فإنه يتضح من وثائق الجامعة الأهلية أن عدد النساء اللاتي خاطرن بدخول الجامعة في عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقي فكن من جنسيات مختلفة ، وإذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فإننا نجد أن عدد الرجال المقيدين بالجامعة في نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أي أن عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة إذا نظرنا إليها في ضوء تقاليد ذلك العصر . وقد يدفعنا ذلك إلي أن نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتي حضرن إلي الجامعة في ذلك الوقت للاستماع إلي محاضراتها الواقع أن المواظبات منهن علي حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية منهن هدي شعراوي وصفية زغلول وفاطمة عمر شقيقة عبد العزيز باشا فهمي ، هذا بالاضافة إلي عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوي ورشدي وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن أميرات من الأسرة المالكة أمثال فاطمة فاضل وعين الحياة (٢) .

---

(١) الظاهر : العدد ١١٤٩ في ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ .
(٢) للتفاصيل انظر : تقويم جامعة القاهرة ٦٩ - ١٩٧٠ .

وقد وصفت احدي النساء حضور المستمعات إلي مبني الجامعة ، فقالت « تقاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات ، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراي الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا إلي البهو العظيم المعد لمحاضرة السيدات [١] .

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتي لا تضطر المستمعات إلي وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر في هذا القسم النسائي نبوية موسي ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها في مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية ولبيبة هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق وأثرهما في حياة الأمم وطالبت بايجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية في المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتي إذا أصبحن أمهات أدركن ما عليهن من خطر الواجبات [٢] .

وحاضرت رحمة صروف في شئون التدبير المنزلي ، وحاضرت ملك حفني ناصف (باحثة البادية) في حقوق المرأة وواجباتها وموقف الاسلام من ذلك ، كما حاضرت في موضوعات تدور حول « المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية وعاداتهما » وكانت تلقي علي مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سيء العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من أن المرأة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم . وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية ، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد ، وإذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم ، كما تحدثت عن الزار فقالت أنه أبو الخرافات

---

(١) الجريدة في ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان « في الجامعة المصرية » .
(٢) مجلة فتاة الشرق : القاهرة ١٩١٠ – ١٩١١ ، ص ١٦٩ .

ومفسد البيوت ، وأنها لاتدري لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها ، وتساءلت لماذا لم نلجأ إلي ارسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ إلي الشيخة رمانة وسعيفة ويوسف مرقع وغيرهم ممن لا يطلبون إلا الخلاخيل والمصوغات وأوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات ادعين ركوب العفاريت اياهن ، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار (١) .

واشترك في إلقاء هذه المحاضرات أيضا بعض الأجنبيات مثل الآنسة كوفرور المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت في محاضراتها علي علم النفس والأخلاق كما كان يلقي بعض الأطباء من المصريين والأوربيين محاضرات في حفظ الصحة والعناية بالأطفال (٢) .

ولم يقتصر نظام الدراسة بالقسم النسائي علي ذلك بل أخذ يتطور بتطور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففي عام ١٩١٢ أصبحت الدراسة بهذا القسم تشتمل علي محاضرات في التربية وعادات المصريين وتأثير الاسلام فيها ودولة المماليك ، وحروب فرنسا ، وأشهر النساء في التاريخ ، وعلم التدبير المنزلي والتدابير الصحية واختيار المنزل وأثاثه والحياة الزوجية وسعادة الأسرة والآداب المنزلية والأخلاق .

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذي سبقه يتضح أن كلا من البرنامجين ركز علي الاهتمام بمواد تهم حياة المرأة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها ، وربما كان يرجع هذا إلي أنه لم يكن يتطرق إلي ذهن أحد في ذلك الوقت قيام المرأة المصرية بالعمل بالمصالح كالرجال بل يقتصر دورها علي تدبير شئون المنزل ، وتهذيب الأولاد .

وعلي الرغم من اقبال بعض السيدات والآنسات على حضور هذه

---

(١) الجريدة : العدد ٩٤٤ في ١٨ ابريل ١٩١٠ .

(٢) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة في ١٥ مارس ١٩١١ ، ص ١٢ .

الدراسات في الجامعة فإن الرجال المتمسكين بالتقاليد منعوا زوجاتهم وأقاربهم من حضور هذه المحاضرات ويتضح ذلك من مناشدة بعض النساء علي صفحات الجرائد دون أن يذكرن أسماءهن الرجال ألا يمنعوا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة [1] .

والجدير بالذكر أن إنشاء القسم النسائي بالجامعة قد أثار ثائرة بعض المحافظين فبالرغم من أن معظم المحاضرات كانت تلقيها نساء ، وكانت تتركز علي التربية المنزلية والحياة الأسرية فقد تجمع بعض الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الدخول لأن ذلك سيؤدي من وجهة نظرهم إلي خروجهن علي الآداب ، ويرفع عنهن صفة العفاف التي تتحلي بها كل قابعة بالمنزل ، وعندما أرسل عبد العزيز فهمي سكرتير الجامعة خطابات إلي نساء الطبقة الواعية يدعوهن للحضور اعتبر بعض الغيورين علي الأخلاق العامة وجود أسماء نسائية علي أظرف الخطابات ، فيراها رجل البريد بمثابة عار يلحق بسمعتهن ومن الفضائح الكبري التي لا يمحوها إلا الدم ، فأرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلي عبد العزيز فهمي إذا لم يكف عن هذا العمل [2] .

وعلي كل حال فإنه نتيجة لحضور بعض النساء المحاضرات في الجامعة حدثت مناظرات فكرية علي صفحات الجرائد بين معارضى تعليم المرأة ومؤيديه وتصارعت الأفكار بينهما فذكر المعارضون أن البلاد في حاجة إلي أمرأة تحمل ولدها علي كتفها لا أن تصدر الأوامر بقلمها وتدير الشئون العامة في الدواوين .

وأنها من يوم أن تولد إلي يوم أن تموت تنتقل من رعاية رجل إلي رعاية آخر لأن الرجال قوامون علي النساء شرعا كما صور بعض هؤلاء

---

(١) وزارة التعليم العالي : المرأة المصرية في التعليم العالي ١٩٧٥ ، ص ١٩ .

(٢) اجلال خليفة : الحركة النسائية الحديثة ، قصة المرأة العربية علي أرض مصر ، ص ٨٤ .

للمرأة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه ورأي بعضهم الآخر أن سبب شقاء الجنس البشري حواء التي أغوت آدم [١] ، ولم تقتصر معارضة تعليم المرأة علي الكتاب بل عارضه أيضا أمير الشعراء فقد شبه أحمد شوقي المرأة المصرية بالطير من حيث ضعفها وتقيدها بمشيئة الرجل ، وأنه يجب علي النساء التمسك بالحجاب صونا لعفافهن وذلك في قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن في شخص عصفور الكناريا أنهن محجوبات منحبسات لنفاستهن والخوف عليهن من عاديات الخارج وضرب لهن الأمثال للتحريض علي الخضوع للرجل فقال :

صداح يا ملك الكنار ... ويا أمير البلبل
حرصي عليك هوي ... ومن يحرز ثمينا يبخل
شهد الحياة مشوبة ... بالرق مثل الحنظل
ان طرت عن كنفي ... وقعت علي النسور مثل الجهل [٢]

وقد ردت احدي النساء علي هذه القصيدة معاتبة أمير الشعراء فقالت حكمت عليٍّ أيها الشاعر بالأسر ونصحتني بالصبر ولم تدر أني فقدت كل صبر في حبسك اياي بدون داع فلم يعد لي شعور ولا إدراك بعد أن اغتصب مني حقي الطبيعي الذي دونه قتل النفس وازهاق الأرواح أيها الشاعر نسبت حالتي هذه إلي الطبيعة ، وما هي إلا نتائج حبك لأسري . أسرتني لأحررك ، أحزنتني لأفرحك . أناشدك الحق هل سمعت نحيبي داخل القفص وهل راقك منظري مكبلا بتلك السلاسل الحديدية [٣] .

وعلي كل حال فإن أمر مهاجمة سفور المرأة لم يقتصر علي الرجال بل أيد ذلك بعض النساء حتي اللائي أصبح لهن بعد ذلك شأن

---

(١) صحيفة العفاف : ابريل ١٩٢١ وديسمبر ١٩٢٢ .
(٢) أحمد شوقي : الشوقيات جـ ١ ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢١٤ - ٢١٦ .
(٣) الجريدة : العدد ٩٨٥ في ٦ يونيو ١٩١٠ .

في مجال التعليم الجامعي ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد ذكرت في بداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نساء القاهرة عندما رأتهن لأول مرة في مقال تخيلت فيه أنها تخاطب صديقة لها فتقول « ستذهبين إلي القاهرة وتدخلين في دنيا جديدة وتشعرين بحال غريبة فتثور في نفسك ثورات كامنة لا عهد لك بها إذ تجدين الفتيات عاريات إلا ما يستر عوراتهن . . . كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ستار » .

أما مؤيدو تعليم المرأة فقد ذكروا أن انحطاط المرأة المصرية يعتبر دليلا علي انحطاط الرجل ، وأن المرأة خلقت مساوية للرجل في كل شيء وأنه يجب أن تنال من الحقوق ما يناله الرجال تماما .

وعلي كل حال فقد أدي احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها ، إلي ايقاف التدريس بالفرع النسائي بالجامعة خلال العام الدراسي ١٩١٢ – ١٩١٣ (١) ظل الحال علي هذا المنوال فترة طالت إلي ما بعد أن أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلي الرغم من حصول بعض الفتيات علي البكالوريا التي تؤهلهن للالتحاق بالجامعة فإن الطريق كان شائكا وأبواب الجامعة كانت مغلقة في وجوههن ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال في ذلك الوقت أمثال أحمد لطفي السيد وطه حسين لما تحققت للمرأة فرصة التعليم الجامعي وتفاصيل ذلك أن بعض الفتيات لجأن إلي لطفي السيد مدير الجامعة يطلبن مساواتهن بالرجال في التعليم الجامعي ، وأن بعض عمداء الكليات وأساتذتها طلبوا أن تقبل الفتيات الحائزات علي البكالوريا في كلياتهم ، وكان طه حسين هو أول من عرض علي لطفي السيد قبول الطالبات في الجامعة ، وحين سأله لطفي السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات أجابه بأن القانون يقول ان الجامعة للمصريين ولم يحدد النوع . يضاف إلي ذلك أن بعض الصحف

(١) الجامعة المصرية : تقرير مجلس الادارة في ٢٩ ابريل ١٩١٣ ، ص ١٣ .

طالبت بضرورة أن يشمل التعليم الجامعي الفتيات ولكن الموقف لم يكن سهلا فقد كانت هذه المسألة شائكة خصوصا وأن أنصار هذا الرأي بالنسبة للرأي العام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعدم مناقشته أو عرضه علي الرأي العام حتي لا يثور المتزمتون ويتعقد الموقف ، وفي غفلة من هؤلاء وضعت الجامعة الرأي العام والحكومة أمام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب أبوابها للطالبات ودخلتها أربعة هن سهير القلماوي وفاطمة سالم سيف ، وفاطمة فهمي خليل ، وزهيره عبد العزيز .

ويتضح ذلك فيما كتبه لطفي السيد في مذكراته إذ يقول لا أخفي أننا قبلنا الطالبات أعضاء في الأسرة الجامعية في غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشباب باخواتهن في الدرس [١] .

وعلي كل حال فإن هذا الاجراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية أحدثت ضجة شديدة في أوساط المحافظين ولكن سنة التطور الاجتماعي كانت فوق هذه الضجة التي كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بها الزمان وأصبحت في خبر كان .

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب ـ وكانت هذه الكليات التي تضمها الجامعة في ذلك الوقت ـ علي منوال كلية الآداب فوافقت كل منها علي قبول الطالبات فدخلت الحقوق الطالبة نعيمة الأيوبي أما كلية العلوم فقد التحقت بها ثمانية طالبات منهن نفيسة سماحة وعايدة انطون والتحقت بكلية الطب أربع طالبات هن نفيسة محمد ، وفاطمة حسن ، وزينب ابراهيم ، وحكمت البدري ومع أن التحاق الطالبات بهذه الكليات كان أمرا طبيعيا إلا أنه أثار الكثير من النقاش والجدل داخل الجامعة وخارجها وقد فقدت المرأة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقالة الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب في عهد وزارة صدقي [٢] ثم تقديم لطفي السيد

---

(١) أحمد لطفي السيد : قصة حياتي ، القاهرة ، كتاب الهلال ، مايو ١٩٨٢ ،ص ١٨٣.
(٢) للتفاصيل أنظر كتابنا : ه حسين والجامعة المصرية .

استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا علي تدخل السلطات في شئون الجامعة بنقلها طه حسين إلي وظيفة خارج الجامعة علي غير ارادتها وقد يعزي إلي ذلك تأخر دخول الفتيات للكليات الأخري بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندسة والزراعة ممتنعين عن قبول الفتيات فترة وسارت علي هذا المنوال كلية التجارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة أن طغت علي الأفكار القديمة فغزت المرأة تلك الحصون التي كان يحتكرها الرجل ففتحت أبواب هذه الكليات للطالبات ، فدخلنها واستطعن أن يحصلن علي نتائج تبعث علي التفاؤل وتدريجيا ضمت كليات الجامعة الفتيات ، ولم يتأخر في ذلك سوي كلية دار العلوم التي لم تفتح أبوابها للفتيات إلا في العام الدراسي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ أي بعد ضمها إلي جامعة القاهرة .

وإلي جانب اتاحة التعليم العالي للفتاة بجميع صوره وتخصصاته رؤي ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعي تفي باحتياجات الأسر المحافظة التي لا ترغب في اختلاط بناتها مع الشبان ومن هنا أنشئت كلية البنات عام ١٩٥٠ وأصبحت احدي كليات جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبلا معهد التربية للمعلمات وفي العام الدراسي ١٩٦٢ / ١٩٦٣ أنشئت كلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المرأة مجالا جديدا من التعليم العالي والتعليم الديني [(١)] .

وأخذ عدد الطالبات اللائي يلتحقن بالجامعة في التزايد فبعد أن كان عددهن في عام ١٩٢٩ وهي السنة التي قدر لهن فيها السماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ ألف طالبة .

وبعد أن كان عدد الملتحقات بالجامعة في عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العلوم وأربعة بكلية الآداب ، وأربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكلية

---

(١) وزارة التعليم العالي : المرأة المصرية والتعليم العالي ، ص ٤٤ .

الحقــوق أصبح عددهن في كليات الآداب فقط حتي عام ١٩٧٩ ٢٤ ألف طالبة [١] .

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات في أول دخـولهن الجـامـعـة أي صلة تربطهن بالطلبـة ، ودخلن قـاعـات المحاضرات مغطيات الرءوس وأمتنعن عن الاقتراب من الأماكن التي يتواجد فيها الطلاب وتجاهلن التحيات الموجهة إليهن ، ورفضن الاشتراك في مناقشة الأساتذة خلال الدرس ، وقد حاول الدكتور طه حسين أثناء عمادته لكلية الآداب تشجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففي الحفل الذي أقامته الكلية في نادي الجامعة بمناسبة النجاح الذي أحرزه مشروع القرش في فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة تظهر طلبة الكلية حول عميدهم طه حسين وقد جلست كل طالبة بجانب طالب [٢] مما أثار الرأي العـام وتوتر موقفه من الجامعة أكثر مما كان فحمل أحد أعضاء مجلس النواب حملة شديدة في البرلمان ضد د. طه حسين وموقفه من هذا الاختلاط وعلي كل حال فإن رهبة الطالبات من الاختلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طويلا ففي أول محنة تعرض لها استقلال الجامعة بفصل الدكتور طه حسين علي غير ارادته من الجامعة خرجت الطالبات من عزلتهن وثرن مع الثائرين ، وارتفعت أصـواتهن لأول مـرة تخطب وتحمس وتدعـو إلي النضـال انقاذا لاستقلال الجامعة من تلاعب الأهواء [٣] وكان اشتراكهن في المظاهرات دافعا لزيادة حماس الطلاب ، كما ظهرت لدي بعض الطالبات القدرة علي اقناع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفي للتدليل علي ذلك أنه في أثناء الاضراب نادي عميد الحقوق الطالبة نعيمة الأيوبي ودعاها إلي اقناع زملائها بوقف الاضراب والعمل علي اعادة النظام فعادت الأمور إلي نصابها .

---

(١) المركز القومـي للبحوث التربوية : المرأة والتعليم في جمهورية مصر العربية ، ص ٤٩ .
(٢) الأهرام : العدد ١٦٩٥٩ في ٢٣ فبراير ١٩٣٢ .
(٣) مضابط مجلس النواب : الجلسة التاسعة عشرة في ٧ مارس ١٩٣٢ ، ص ٢٥٨ .

وبدأت طالبات الجامعة يتطلعن إلي المزيد من الحرية فمارسن الألعاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك في كلية الآداب عندما ظهرت طالبة في ملعب التنس .

ورغم ثورة الرأي العام علي هذه الحرية التي اتيحت لفتاة الجامعة ، ورغم الاحتجاجات الشديدة التي وصل مداها إلي القصر الملكي بخصوص ممارسة الطالبات للألعاب الرياضية في الجامعة فقد استمرت المسيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فأخذت ملاعب الجامعة تكتظ بالطالبات من مختلف الكليات ، ولم يقتصر ذلك علي التنس بل تطرق إلي كرة السلة وغيرها من الألعاب .

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطالبات يحسبن ألف حساب لمعارضي تحررهن داخل الجامعة ويتضح ذلك في تأخر دخولهن اتحاد الطلاب بالجامعة ، فالبرغم من أن هذا الاتحاد منح حق العضوية للطالبات إلا أنهن لم يرشحن أنفسهن في عام ١٩٣١ رغم تشجيع البعض لهن ، وقد أعربت احدي الطالبات عن سبب ذلك بقولها « اني أجد في ذلك مجازفة كبري لما تكنه قلوب المعارضين من تهكم وسخرية [(١)] .

ولكن هذه الرهبة لم تستمر طويلا فقد شاركت الطالبات الطلاب في أنشطتهم الاجتماعية فعندما انشئت جماعة النهضة الاجتماعية في كلية العلوم عام ١٩٣٧ بهدف جمع التبرعات من الطلاب الأغنياء وتوزيعها علي زملائهم الفقراء وأقيمت سوق خيرية في الجامعة من أجل هذا الغرض قامت الطالبات بعرض أشغال من صنعهن في هذه السوق وساهمن في جمع التبرعات من الآخرين .

يضاف إلي ذلك قيام الفتيات بالاشتراك في المناظرات والمحاضرات التي أقيمت داخل وخارج الجامعة .

---

(١) صحيفة الجامعة المصرية : العدد الرابع ابريل ١٩٣١ ، ص ٥٦ – ٥٨ .

وعلي كل حال فقد أدي دخول الفتاة المصرية الجامعة إلي اثبات وجودها ، وبانها لا تقل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية ، كما أنها لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل .

وفي عام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكونة من نعيمة الأيوبي من كلية الحقوق وسهير القلماوي ، وفاطمة سالم ، وفاطمةخليل من كلية الآداب ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل أن كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن نواة لأعضاء هيئة التدريس بها وهن سهير القلماوي في اللغة العربية ودرية فهمي للانجليزية وفاطمة سالم للدراسات القديمة [١] .

وقد أثبتت خريجات الجامعة من الفتيات القدرة علي منافسة الرجال في الحصول علي الدرجات العالية وتولي المناصب الأكاديمية في الجامعة نفسها ، وإذا نظرنا إلي المكانة التي تحتلها المرأة في الجامعة حاليا يتضح أنها تشغل جميع المناصب الأكاديمية فيها علي اختلاف أنواعها ابتداء من وظيفة معيد إلي رئيس قسم وعميد .

ولم يقتصر الأمر علي ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات في بعثات الي الخارج للتأهيل في التخصصات غير المتوافرة في الجامعات ، وكذلك التخصصات العالية التي تؤهلهن للتدريس في الجامعات الي جانب التأهيل اللغوي في اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحللن محل الأجنبيات .

وبعد أن أثبتت الفتاة الجامعية مقدرتها علي المساواة بالرجل كان عليها أن تواجه معركة أخري وهي الحصول علي وظيفة والخروج إلي معترك الحياة العملية ولكن بعض العائلات استنكرت ذلك ورأت أنه من الخير للفتاة الجامعية ألا تزج بنفسها في ميدان العمل من غير تسلح

---

(١) المقتطف : أول يناير ١٩٣٧ ، ص ٢٤ .

ولا استعداد وأنه من الأفضل بعد تخرجها الاستفادة بها بتزويجها لتكون نواة صالحة للبيت المصري الحديث خصوصا وأن مشاكل المتعلمين المتعطلين ستزداد سوءا إذا ما شاركت الفتاة الرجل في الحياة العامة (١) .

يضاف إلي ذلك أن المعارضين لسفور المرأة وخروجها إلي مجال العمل قاموا بحملة شديدة لوقف تيار حصول المرأة علي وظيفة واتبع بعضهم في ذلك الاسلوب اللاذع الذي يستنهض همم الرجال ويدفعهم إلي معارضة تشغيل النساء ونقتطف في هذا المقام بعض ما جاء في مجلة كل شيء والدنيا في يوليو ١٩٣٢ فأعلا توقيع فضولي ذكرت هذه الأبيات :

حلقت رجالكم اللحي | لما علا أمر النساء
والآن ترتزق النساء | وتأكلون بلا عناء
فليلحق الموسي الشوارب | انها منكم براء (٢)

وبالرغم من كل ذلك فقد كان هناك رأي آخر يري أنه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع أكثر من ركونها إلي الحياة المنزلية لأنه لا معني أن تعد الفتاة للحياة ، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد .

وتحفظ البعض نحو هذا الموضوع فرأي توجيه الفتيات بعد تخرجهن إلي الأعمال التي تتناسب مع قدراتهن والتي يختلفن فيها عن الرجال . وأخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخول المرأة مجال العمل فعندما رغبت نعيمة الأيوبي أولي خريجات كلية الحقوق في العمل بالمحاماة ترددت لجنة قبول المحامين في الموافقة علي قيد اسمها في أول الأمر ، ثم انتهي الخلاف بين أعضائها بانتصار جبهة المؤيدين لقبولها وعلي كل حال فالملاحظ أن الذي

---

(١) الدستور : العدد ٣٩٣ في ١٦ ابريل ١٩٣٩ .
(٢) كل شيء والدنيا : عدد ٩ يوليو ١٩٣٢ .

دافع عن المرأة المصرية وتعليمها الجامعي ثم خروجها إلي مجال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النساء أصحاب الشأن في هذا الموضوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التي قدمت الي القصر الملكي والتي يعرب فيها أصحابها عن استيائهم من المحاضرات التي يلقيها بعض الرجال مثل محمود عزمي أفندي والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب ، داخل الحرم الجامعي ، ودعوتهم للمساواة بين المرأة والرجل وعلي كل حال فإنه بمضي الوقت دخلت المرأة مجال العمل ، وعملت في جميع الوظائف العامة وأصبحنا نسمع عن أسماء مصريات برزن في كافة ميادين الحياة حتي وصلن إلي منصب الوزارة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل خروج المرأة إلي مجال العمل بحكم حركة التطور والانتقال التي يمر بها المجتمع قد أثر علي شخصيتها الاجتماعية ايجابا أم سلبا ؟

لقد أظهرت دراسة نفسية اجتماعية حديثة أن خروج المرأة إلي مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثار سلبية علي أدائها كزوجة وكأم أي علي أدوارها التقليدية كأنثي فإنه قد أضاف أدوارا جديدة إلي أدوارها السابقة فأدي الي انضاج شخصيتها ، وزاد من ثقتها في نفسها واكسبها قدرا من المرونة وحسن التصرف في المواقف الاجتماعية التي تتعرض لها يضاف إلي ذلك أنه كلما زاد مستوي التعليم عند المرأة زادت قدرتها علي التخلص من الآثار السلبية لخروجها إلي العمل ومكنها من التخلص من آثار الصراع الذي ينشأ لديها نتيجة لأدوارها المتعددة خاصة في ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا [١] .

---

(١) د. محمد سلامة آدم : المرأة بين البيت والعمل ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٢ ، ص ٨٥ .

وهكذا أسهم التعليم الجامعي في اعداد المرأة المصرية اعدادا أتاح لها الخوض في كافة مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها ، ولكن يجب أن يعترف النساء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجانب المرأة ودافعوا عن حقوقها .

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع إلي قوة مثقفة عاملة ومنتجة في كافة ميادين الحياة ، تساهم فيما يصبو إليه الوطن من مراقي التقدم بين الأمم الناهضة .

* * * * *

٨ - المرأة في حياة زعماء مصر السياسيين

إن تاريخ المرأة المصرية لم يكن أبدا وبأي حال منفصلا عما يدور في المجتمع المصري من قضايا ومشكلات فالرجل لم يصنع الحياة وحده بل كانت المرأة دائما إلي جواره مشاركة له في كافة مناحي الحياة المختلفة منذ حواء أم البشر .

وعلي الرغم من أن ذلك ينطبق علي دور المرأة في الشرق والغرب معا إلا أن الاعتبارات التي تحيط بالمرأة الشرقية قد تجعل التعرض لها في تراجم الرجال أمرا يكاد يكون مجانبا للحشمة من وجهة نظر الكثيرين مما يجعل بعض الباحثين لا يقتربون كثيرا من مثل هذه الموضوعات علي الرغم من أن الباحث الجاد يمكنه أن يتعرض لمثل هذه الوقائع من خلال دفتر التاريخ النسائي المعاصر علي أن يكون ذلك في ثوب يخضع للعلم ويحترم الحقيقة ويلتزم حدود اللياقة دون أن يغرس السكاكين أو يحرق البخور أو ينثر الرياحين . فالمرأة سر الحضارة وقانون البقاء والاستمرار ولولاها ما أثمرت شجرة ، ولا تفتحت زهرة ، ولا ابتسم طفل ، ولأصبحت الحياة بالنسبة للرجل سقيمة فارغة فهي الانسان الذي يمكن أن يجلب السعادة كما يجلب الشقاء وقد شبهها البعض بالزهرة الكثيرة الأشواك التي لا يستطيع أحد أن يستخرج أطيب ما فيها دون أن يتأثر بشوكها سوي البستاني الماهر وشبهها البعض الآخر بالنحلة التي تعطي العسل وتلدغ في ذات الوقت .

ويمر وصول المرأة عامة إلي كرسي السلطة والتدخل في أمور السياسة بطريقين :

الأول : هو الوصول عن طريق نظام الوراثة أو نظام الانتخاب ، وفي هذه الحالة لا تتدخل أنوثتها أو تأثيرها في طريقة وصولها إلي تلك المراكز

الهامة والأمثلة علي ذلك في التاريخ الانساني تكاد تكون معروفة فجولدا مائير ربما كانت أقل أنوثة من وزير دفاعها موشي ديان ، واندير غاندي الذي اتسم وجهها بالصرامة ، ووصفها البعض بأنها رجل الهند القوي يمكن ضمها إلي عالم الرجال بدلا من عالم النساء ، ومرجريت تاتشر تلك المرأة الحديدية التي حكمت بريطانيا واتخذت من القرارات المؤثرة في تاريخ بلادها ما يصعب علي بعض الزعماء من الرجال اتخاذه كانت منتخبة من قبل الشعب البريطاني ، ولم يكن لأنوثتها أي تأثير عندما وصلت إلي كرسي الحكم .

أما الثاني : فهو تسلل المرأة إلي السلطة عن طريق أنوثتها ودخولها إلي عالم السياسة من الشباك لعدم تمكنها الدخول من الباب ، وتحكمها في أمور الحكم ، وتوجيهها للقيادات العليا في الدولة ، وحشر أنفها في صنع القرار السياسي عن طريق صلتها بحاكم معين أو زواجها من زعيم أكبر منها سنا ، وهذا كان شأن السلطان العثماني « سليمان القانوني » مع « روكسلانة » Roxelane الروسية ذات الجمال والدلال والوجه الباسم والتي سيطرت علي عقله وقلبه ، وأصبحت بمثابة مستشاره الأول مما أضر بالمصالح العليا للدولة العثمانية ضررا بليغا [١] .

ومن المعروف أن مصر كانت أول دولة في التاريخ القديم حكمتها امرأة ففي العصر الفرعوني حكمتها حتشبسوت ، كما كان لنفرتيتي دور مؤثر في إدارة دفة الحكم ، وفي العصر البطلمي حكمتها كليوباترة ، يضاف إلي ذلك أنها أول دولة في العصور الوسطي حكمتها امرأة أيضا حيث حكمتها شجرة الدر في نهاية العصر المملوكي والتي ارتبط دورها تاريخيا بالحملات الصليبية ، أما في العصر الحديث وبخاصة في القرن

---

(١) للتفاصيل : انظر عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٤ ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

العشرين فقد أثر في مسيرة مصر السياسية والاجتماعية العديد من النساء المصريات وغير المصريات وكانت لهن بصمات واضحة في تكوين الزعامات المصرية ومساندتها أحيانا وتوريطها والاساءة اليها في أحيان أخري والأمثلة علي ذلك متعددة منها :

أثر حب مصطفي كامل لعزيزة بنت الجيران في تكوين شخصيته وعزوفه عن الزواج ، وأثر جوليت آدم في فتح أبواب الصحافة الفرنسية والأوربية أمامه خلال دفاعه عن القضية المصرية في أوربا ، وأثر الأميرة نازلي فاضل صاحبة الصالون الشهير [1] في تكوين ومساندة العديد من رجالات مصر وزعاماتها أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين وغيرهم . وأثر صفية السادات علي مسيرة حياة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الاصلاح علي المباديء الدستورية ، وأثر عزيزة روتشبرون [2] في الوقوف بجانب محمد فريد، وأثر صفية فهمي في تكوين سعد زغلول ووصوله إلي الشهرة وضمه إلي طبقة جديدة ، وأثر عائشة بنت عبد الفتاح يحيي باشا في التأثير علي مستقبل اسماعيل صدقي السياسي لفترة ، وأثر زينب الوكيل في حياة مصطفي النحاس وزعامته للوفد ، وأثر المرأة في حياة كل من الملك فاروق وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات .

والسؤال المطروح هو : هل المرأة المصرية التي كانت تنتمي إلي الطبقة العليا هي التي استطاعت أن تلعب دورا مؤثرا مع الزعامات المصرية خاصة في فترة ماقبل ١٩٥٢ أم أن نسوة من مختلف الطبقات لعبن هذا الدور ، وهل كان للمخابرات الأجنبية دورها في بث عيون لها بين هذه الزعامات خاصة بعد عام ١٩٥٢ .

الواقع أن بعض نساء الطبقة العليا في المجتمع هن اللاتي

---

(١) لتفاصيل ذلك : انظر الموضوع الثاني من هذا الكتاب ، ص ٢٥ - ٣٨ .

(٢) اسمها الحقيقي رينيه روتشبرون - ريفارد .

استطعن دون غيرهن من نساء الطبقة الشعبية التأثير علي الزعامات المصرية خاصة وأن ثقافتهن ، وتأثرهن بالأفكار الأوربية أتاح لهن ما لم تتحه الظروف للفلاحة التي تعمل في الحقل وتلهث وراء لقمة العيش أو للمرأة الصعيدية التي ترضع أطفالها لبن الثأر فنازلي فاضل كانت احدي أميرات الأسرة الحاكمة ، وزينب الوكيل ابنة الباشوات كانت سليلة الطبقة الارستقراطية ، وعائشة عبد الفتاح كانت ابنة عبدالفتاح يحيي باشا الذي تولي رئاسة الوزارة في مصر مرتين .

وبالنسبة لدور المخابرات العالمية في توظيف بعض الفنانات في اصطياد رجال الدولة والمسئولين في مصر لمعرفة أدق أسرار البلاد فإن التاريخ يظهر لنا بوضوح مدي تورط بعض الفنانات مع المخابرات البريطانية وغيرها مثلما حدث مع الفنانة اسمهان ، وكاميليا وغيرها .

وفيما يلي نعرض لدور المرأة في حياة بعض زعماء مصر السياسيين .

أولا . المرأة في حياة مصطفي كامل :

لقد تعرف مصطفي كامل خلال حياته القصيرة بفتاة وسيدة الأولي عزيزة بنت الجيران التي أحبها ورفض أهلها اقترانه بها والثانية جوليت آدم الفرنسية التي ناشدها المساعدة فساعدته .

وبالنسبة للأولي فقد صدم في حبه لها بعد أن تعلقت به وتعلق بها خلال حياته الطلابية ، وصارحها بما يجول في نفسه ، وبادلته هي الأخري نفس الأحاسيس وتعاهدت واياه علي الزواج ومع ذلك لم يتم الزواج بينهما لرفض أهلها تزويجها له بحجة أن أحد أقاربها هو الذي سيتزوجها ، ولما كانت البنت في ذلك الوقت في قبضة أهلها كالمتاع لم تستطع عزيزة المعارضة أو الخروج عن التقاليد [١] مما صدم مصطفي كامل وترك في نفسه جرحا عميقا جعله يحجم عن الزواج تماما حتي وفاته .

(١) عشق مصطفي كامل وأسماء عشيقاته ، ص ٤٨ - ٤٩ .

أما الثانية فمن المعروف أن مصطفي كامل اتصل خلال دفاعه عن قضية استقلال مصر بالسيدة الفرنسية جوليت آدم Juliette Adam صاحبة المجلة الشهيرة لانوفيل ريفوLa-Nouvelle Revue وكان تعرُّفه بها حدثا هاما في حياته السياسية لأنها كانت من أبرز شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب [١] في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين .

وقد اطلع مصطفي كامل علي مجلتها ، ووقف علي مثلها العليا التي تحرك قلمها كما أراد أن ترشده بنصائحها بعد أن وجد فيها أما روحية [٢] فأرسل لها خطابا أوضح فيه حبه لوطنه وآماله الكبار في نهضة بلاده فقال :

« إني لا أزال صغيرا ولكن لي آمالا كبارا ، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة .. هم يقولون أن وطني لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتي أنه موجود .. »

ثم طلب منها المعونة لما تتميز به من الوطنية والدفاع عن الحق فقال :

« أعينيني يا سيدتي فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولي ، وتقوية عزمي ومساعدتي »[٣] .

وقد ردت جوليت آدم علي خطاب مصطفي كامل برسالة أوضحت فيها استعدادها لمعاونته في جهاده وفتحت له أبواب مجلتها لكي ينشر فيها مقالاته ، كما فتحت له أيضا أبواب الصحافة الفرنسية وعرفته بكبار الرجال في فرنسا ، ورتبت له مقابلة مع المسيو دلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية

---

(١) الرافعي : مصطفي كامل باعث الحركة الوطنية ، ص ٥٨ .
(٢) أحمد رشاد : مصطفي كامل حياته وكفاحه ، ص ٧١ .
(٣) علي فهمي كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٣ - ٧ ، رسالة بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ .

عرض فيها مصطفي كامل تطورات القضية المصرية منتقدا سياسة فرنسا في مصر[١] .

وقد تتبعت جوليت آدم أحوال القضية المصرية وكانت بالنسبة لمصطفي كامل بمثابة الأم وكان مصطفي كامل لا يقدم علي الأمور الهامة في أغلب الأحيان إلا بعد استشارتها . ويتضح ذلك من خطاباته التي كان يرسلها لها ومن ذلك قوله : « انك الوحيدة التي تستطيعين أن تقولي لي إذا كنت في الطريق السوي أم لا » .

« إن جراحاتي الوطنية تسيل منها الدماء بغزارة ، واني في حاجة إلي وجودي بجانب القلب الذي يحبني ويفهمني ويمدني بحيويته » « إني سأظل مدي الحياة أوفي أولادك وأكثرهم ولاء لك » « وعندما تثبط همتي أبعث روحي لترتوي من منهل الأمومة الذي كثيرا ما شد أزري »[٢] .

ونتيجة لتوثق صلة مصطفي كامل بجوليت آدم ازداد نشاطه في أوربا حتي وصل إلي انجلترا نفسها فقد أرسل مصطفي كامل إلي المستر جلادستون رئيس الوزراء الانجليزي الأسبق يبسط فيها أماني مصر الوطنية التي تنحصر في جلاء الانجليز عنها [٣] .

وقد ظلت جوليت آدم تتبع نشاط مصطفي كامل ، وظل مصطفي كامل يحيطها بما يجول في نفسه ويزف إليها أخباره فعندما عزم علي تأسيس اللواء أرسل لها يبلغها بذلك فردت عليه مشجعة ومهنئة [٤] .

ولكي يوطد مصطفي كامل علاقات الود بينه وبين جوليت آدم دعاها

---

(١) مذكرات محمد فريد : مظروف رقم (١) خطاب من مصطفي كامل إلي محمد فريد في ١٠ أغسطس ١٨٩٨ .

(٢) انظر رسائل مصرية فرنسية

(٣) عن هذه الرسائل ورد جلادستون عنها انظر :
الرافعي : مصطفي كامل ، ص ٦٤ – ٦٨ .

(٤) علي فهمي كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ص ٥٩ – ٦١ .

إلي زيارة مصر فلبت الدعوة وجاءت إليها في ١٩ يناير ١٩٠٤ فاستقبلها مصطفي كامل وزملاؤه الوطنيون استقبالا حافلا ، وقد لبثت جوليت آدم بمصر نحو ثلاثة أشهر [١] شهدت خلالها عدة مآدب [٢] كما أنها حضرت حفل توزيع الجوائز علي الطلبة المتفوقين في مدرسة مصطفي كامل يوم ١٩ فبراير ١٩٠٤ [٣] .

وبعد أن غادرت جوليت آدم مصر ووصلت إلي بلادها نشرت مقالين عن رحلتها لمصر في مجلتها « لانوفيل ريفو » انتقدت فيهما تخاذل سياسة فرنسا تجاه مصر .

وعلي الرغم من تخلي فرنسا عن مصر وعقدها الاتفاق الودي مع انجلترا عام ١٩٠٤ فإن علاقة مصطفي كامل بجوليت آدم كانت فوق مستوي الأحداث . حقيقة أنه عبر لها عن استيائه واستياء المصريين من الاتفاق [٤] ، ولكنه ظل علي اتصال بها يخبرها بما حققه لوطنه وما تعانيه بلاده من آلام ، كما كان يوضح لها ظروفه الصحية وقد ظل علي ذلك حتي وافته المنية .

وهكذا كانت جوليت آدم الفرنسية سندا قويا لمصطفي كامل ، وكان دورها في حياته السياسية واضحا خاصة وأنها كانت بمثابة السند الرئيسي له في فرنسا ، وعلي الرغم مما قيل وتردد حول علاقات أخري بينها وبين الزعيم المصري الشاب فنحن نستبعد ذلك خاصة وأن فارق السن بينهما كان يزيد عن السبعة والثلاثين عاما بشهور [٥] .

---

(١) جوليت آدم : انجلترا في مصر ، ص ٢٢٣ .
(٢) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ، ص ٣٩ .
(٣) الرافعي : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
(٤) علي فهمي كامل : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ، خطاب بتاريخ ١٠ مايو ١٩٠٤ .
(٥) ولدت جوليت آدم في ١٨٣٦/١٠/٤ بينما ولد مصطفي كامل في ١٨٧٤/٨/١٤ .

ثانيا : المرأة في حياة الشيخ علي يوسف :

قضية زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الاصلاح علي المباديء الدستورية من الآنسة صفية السادات بنت الحسب والنسب أقامت مصر وأقعدتها في أوائل هذا القرن ، وكانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة في ذلك الوقت ، قسمت الرأي العام والساسة وأهل الفكر والرأي وعامة الناس بين مؤيد ،معارض ، كما كانت محل كثير من المناورات السياسية بين المحافظين علي التقاليد ومنهم مصطفي كامل من جهة والخديو عباس الثاني وأنصاره من جهة أخري .

ومرجع ذلك كله أن الشيخ علي يوسف ذلك الرجل العصامي أراد أن يكون عريسا ، وأن يقترن بزوجة تتميز بجمال زمانها من ناحية بياض اللون والسمنة وأن تكون أيضا من بيت حسب ونسب ، وقد هداه تفكيره إلي أن يطلب يد « صفية » صغري بنات الشيخ السادات ، والتي رآها خلال تردده علي أبيها أثناء عمله كصحفي .

وعلي الرغم من موافقة « صفية » علي هذا الزواج فقد تردد والدها في الأمر ، وظل يماطل ويختلق العراقيل .

وبعد أن فاض الكيل بالشيخ علي قرر في نفسه أمرا ففي أحد أيام يوليو ١٩٠٤ خرجت صفية من بيت أبيها إلي بيت نقيب الأشراف الشيخ محمد توفيق البكري في الخرنفش بحجة زيارة أقاربها هناك ، وفي هذا البيت كان الشيخ علي يوسف جالسا ومعه المأذون وبعض علماء الأزهر ، وجاءت العروس وتولي الوكالة عنها الشيخ حسن السقا أحد شيوخ الأزهر المعروفين[1] وتم عقد القران ، واحتفل الحاضرون بالزفاف وخرجت العروس مع عريسها إلي بيت الزوجية .

---

(١) سليمان صالح : الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد - تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن - القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ ، ص ٤٧ .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الشيخ السادات ليقرأ في المقطم نبأ زفاف ابنته ، مما جعله يفقد صوابه خاصة وأن بعض أفراد أهل بيته كانوا علي علم بالواقعة ولم يبلغوه بها . فقدم بيانا إلي النيابة يتهم فيها علي يوسف بأنه خطف ابنته وغرر بها ولما بحثت النيابة الأمر وجدت أن صفية قد بلغت سن الرشد ، وأن من حقها أن تزوج نفسها زواجا شرعيا ممن تختاره ومن هنا حفظت النيابة البلاغ[1] ولم يسكت الشيخ السادات بل رفع دعوي أمام المحكمة الشرعية طالبا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج وعدم كفاءته الاجتماعية لها من ناحية النسب والحرفة فهو لا ينتسب إلي نسب رفيع كالسادات كما أنه من ناحية العمل « جورنالجي » وهي مهنة كما قال في صحيفة دعواه من أحقر المهن نظرا لأنها تقوم علي الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله . وفي ٢٤ من يوليو ١٩٠٤ نظرت محكمة مصر الشرعية هذه الدعوي ، وكان الشيخ أحمد أبو خطوة ـ المعروف بتزمته الشديد في مثل هذه الموضوعات ـ علي رأس هذه المحكمة . وقد أصدرت المحكمة حكما مبدئيا بالحيلولة بين الزوجين ، وتسليم صفية لأبيها لمنع المخالطة الزوجية حتي يتم الفصل نهائيا في الدعوي ولكن صفية رفضت طلب المحكمة رفضا قاطعا معلنة أنها لن تبرح بيت زوجها ولو علي أسنة الحراب مما أدي إلي قيام أزمة بين القضاء والسلطة التنفيذية وصلت إلي حد التهديد بالتوقف عن النظر في القضايا المعروضة أمام المحاكم ، وخلال ذلك انقسم الرأي العام في مصر إلي قسمين الأغلبية وعلي رأسهم مصطفي كامل صاحب اللواء وقفت ضد هذا الزواج الذي تم رغم ارادة الأب وهاجمت صاحب المؤيد ، وطالبت ناظر الحقانية بتنفيذ أمر المحكمة ، أما الفريق الثاني وعلي رأسه الخديو عباس الثاني فقد كان يساند علي

---

(٢) أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ ، القاهرة ، كتاب روز اليوسف ١٩٥٤ ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

يوسف من وراء ستار مما زاد من ثورة الرأي العام وضايق مصطفي كامل ، وأدي في نهاية الأمر إلي القطيعة بينه وبين الخديو [١] .

وبعد مشاورات ومفاوضات تم الاتفاق علي صيغة توفق بين قرار المحكمة واصرار صفية علي البقاء مع زوجها بحيث تترك صفية بيت الزوجية وتذهب إلي بيت رجل مؤتمن ، وتم تخييرها بين بيت الشيخ أحمد أبو خطوة القاضي وبيت الشيخ النواوي المفتي أو بيت الشيخ الرافعي المعروف بحسن السمعة فاختارت الأخير ، وانتقلت فعلا إلي بيته وأرسلت إلي المحكمة ما يفيد ذلك ، ولكن القاضي لم يوافق علي هذا الحل ، واضرب عن النظر في هذه الدعوي ، كما هدد بتوقفه عن النظر في أي قضية أخري حتي يتم تنفيذ حكمه ولو بالقوة . وعلي الرغم من كل ذلك فقد أصرت صفية علي رفض الذهاب إلي بيت أبيها مما أدي إلي تحرج الموقف ، وتحول الرأي العام بقوة ضد علي يوسف فبدأت الصحف لا تكف عن التشهير به وتتحدث ساخرة عن الغرام الذي ذهب بلبه وتنشر أخبارا عن تسلله إلي بيت الشيخ الرافعي ومقابلته لصفية هناك . والحقيقة لم تكن كذلك فقد كان الشيخ علي وصفية يتبادلان الرسائل فقط عن طريق خادمة أوربية كانت تتردد بينهما ، ولما ضبط الشيخ الرافعي إحدي هذه الرسائل اعتبرها نوعا من الاتصال غير المشروع ، وبدأ الموقف في التأزم خاصة وأنه من الصعب نقل سيدة ذات حسب ونسب في احدي سيارات الشرطة قسرا إلي بيت أبيها تنفيذا لقرار المحكمة .

ونتيجة لذلك توالت الاجتماعات في نظارة الحقانية حتي تم اقناع الشيخ أبو خطوة بأن يعدل عن اضرابه ، وأن يمضي في نظر القضية وكان على الشيخ السادات لكى يكسب القضية أن يثبت أن نسب علي يوسف لا يوازي نسبه ، وأن الحرفة التي يزاولها ليست موضع تقدير ، وبعد أن

---

(١) عبد المنعم الجميعي : الخديو عباس الثاني والحزب الوطني ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٩٨٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

نجح الشيخ السادات في اثبات ذلك حاولت الحكومة والخديو التأثير علي القاضي لصالح الشيخ علي ، ولكن القاضي تمسك برأيه وحكم بضرورة فسخ الزواج والتفريق بين الزوجين .

وبعد صدور الحكم علي هذا النحو ، وشعور الشيخ السادات بأن كرامته ردت إليه ، وافق علي المساعي والوساطات المبذولة للتوفيق بينه وبين الشيخ علي يوسف ، بشرط أن تتزوج ابنته منه بعقد جديد وتم الزواج فعلا ، وعادت صفية إلي بيت زوجها .

والغريب في الأمر أن هذه القضية ظلت آثارها علي نفسية الشيخ علي يوسف واضحة ، فعلي الرغم من أن جريدته كانت من أكبر الجرائد المصرية ، وعلي الرغم من كونه رئيسا لحزب الاصلاح علي المباديء الدستورية أحد الأحزاب الرئيسية الثلاثة الموجودة في مصر في ذلك الوقت فقد ظل يسعي لتسجيل اسمه في سجل الأشراف ، ثم وافق بعد ذلك علي أن يعتزل الصحافة بعد ثلاث وعشرين عاما أنشأ فيها المؤيد ليعين شيخا للسادة الوفائية [١] لأن هذا التعيين يجعل منه ندا لأسرة زوجته التي رفضت يوما مصاهرته .

ومما يذكر انه علي الرغم من الضوضاء والمشكلات التي أثيرت حول هذا الزواج فإن علي يوسف لم يسعد في حياته الزوجية مع صفية التي كانت دائمة التنغيص له تنغيصا جعله وهو في سن الكهولة يرابط في مكتبه بالجريدة ساعات طويلة فرارا من البيت وخوفا من شبشب صفية .

ولما توفي الشيخ علي في عام ١٩١٣ كانت زوجته لا تزال في سن الشباب فعاشت بعده ما يقرب من ثلاثين عاما أحبت خلالها الممثل المعروف زكي عكاشة وتزوجته [٢] .

---

(١) ودع الشيخ علي يوسف الصحافة في مقال له بجريدة المؤيد بتاريخ ٦ مارس ١٩١٢ تحت عنوان « كلمة الوداع » أوضح فيها أن أسبابا عائلية قوية هي التي دعته لاعتزال مهنة الصحافة التي يحترمها ويعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة .

(٢) أحمد بهاء الدين : مرجع سابق ، ص ٥٤ - ٦٠ .

ومما سبق يتضح أن هذه القضية قد هزت المجتمع المصري من الأعماق ، وفتحت الجدل حول ضرورة اعادة النظر في القديم ، وفي مفهوم الكفاءة الاجتماعية وهل هي موروثة أم أنها تصل إلي الانسان نتيجة لجهوده وعمله من أجل خدمة بلاده .

ثالثا : المرأة في حياة محمد فريد :

في حياة محمد فريد زوجة وخليلة . الأولي عائشة ابنة عمه وكانت خير مثال للزوجة الصالحة ، الوفية شاركته في السراء والضراء وكانت له في حياته الوطنية نعم العضد الأمين [١] . والثانية الفرنسية روتشبرون [٢] والتي تعقدت علاقته بها علي أيدي المصريين المعجبين بها ، والكارهين لها فقال عنها البعض أنها كانت خليلة لمحمد فريد ، وقال عنها البعض الآخر أنها كانت جاسوسة عليه ومتآمرة ضده . وقد أكد فريد ذلك الرأي بقوله أنها كانت جاسوسة مزدوجة تتقاضي عشرة جنيهات شهريا للتجسس عليه لصالح الخديو وافادته باخباره ، وإنه استطاع بعد أن أخبرته بجلية الأمر أن يستخدمها لتتجسس علي الخديو وتنقل أخباره إليه [٣] .

ويبدو أن الحقيقة شملت كل ما قيل عنها فبعد أن عينها فريد كاحدي سكرتيرات الحزب الوطني انجبت منه ابنا غير شرعي اسمته محمود ، وبالرغم من وعوده لها بالزواج منها فإنه لم يف بوعده خاصة بعد فقده لثروته ، ولم يعد في مقدوره اتخاذها زوجة ثانية له ، مما اضطرها في

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ، ص ١٨ - ٢٠ .

(٢) ولدت بالارجنتين في عام ١٨٨٨ لأسرة فرنسية برجوازية ثم عادت إلي باريس بعد وفاة والدتها ، وشغفت بالدراسات الاسلامية وتعلمت التركية ، وكونت علاقات مع الكثير من الطلاب المصريين والأتراك والهنود في باريس عام ١٩٠٩ وهي السنة التي التقت بها بفريد .
انظر : ارثر جولد شميت : الحزب الوطني المصري ، ص ٢٥١ .

(٣) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : أوراق محمد فريد ـ المجلد الأول ، مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٤ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨ ، ص ١٠٩ .

النهاية إلي اللجوء للخديو لمعاونتها ماديا فخصص لها راتبا شهريا قدره عشرون جنيها لكي تعول به ابنها علي أساس أن نسب فريد له يجعله مصريا ، وعلي الرغم من أن فريدا كان علي اتصال بروتشبرون طوال حياته فإنه لم يعترف قط بنسبة هذا الابن إليه .

وعلي أي حال فإنه نتيجة للعلاقة المزدوجة بين روتشبرون من ناحية والخديو عباس الثاني ومحمد فريد من ناحية أخري فقد وسطها الخديو في انهاء الخلاف بينه وبين فريد ، ولكنها لم تنجح في ذلك لإصرار فريد على أن يكون الكلام بينه وبين الخديو دون وسيط (١) .

وبعد عزل عباس الثاني من خديوية مصر ظلت عزيزة روتشبرون علي اتصال به تحضر الاجتماعات التي كان يدعو إليها من أجل العمل علي عودته إلي عرش مصر (٢) .

رابعا : المرأة في حياة سعد زغلول :

تزوج سعد زغلول من صفية كريمة مصطفي باشا فهمي - رئيس النظار ، ورجل الانجليز الأول في مصر - في ٢٨ نوفمبر ١٨٩٥ وكان حينئذ في السادسة والثلاثين من عمره بينما كانت في الثامنة عشرة فكان أكبر منها بثماني عشرة سنة بمعني أنها - كما يذكر عباس العقاد - « كانت في سن بنته فتعلمت ما تتعلمه البنات من الآباء ، واطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب » (٣) وقد حرص سعد أن يحتفظ في تعامله معها بتقاليد الفلاح المصري وقد قبلت صفية الارستقراطية ذلك بصدر رحب .

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ، القسم الثاني ، القاهرة ، الطبعة الأولي ١٩٣٦ ، ص ٣٠٣ .

(٢) محمد أنيس : صفحات مجهولة من التاريخ المصري ، القاهرة ، روز اليوسف ، ابريل ١٩٧٣ ، ص ٣٧ .

(٣) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، القاهرة ، ص ٢٥٨ .

وعلي الرغم من أن هذا الزواج قد ساعد سعد زغلول في الوصول إلي الشهرة والمجد ، وضمه إلي طبقة جديدة لم يتشرب تقاليدها فإن سعادته لم تكتمل لعقم زوجته وعدم قدرتها علي الانجاب .

وقد عبر سعد زغلول عن ذلك في مذكراته بقوله « أتمني الآن لو يكون لي ولد ، وأن أبني بواحدة [١] من الفلاحين أو غيرهم ، ويشغل هذا الفكر بالي ولكن تحقيق هذه الأمنية صعب ، لأني أريد أن يكون ذلك سرا ، وذلك من المستحيل تقريبا . فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله » [٢] .

وهكذا اكتفي سعد زغلول بزوجته صفية الذي لم يرغب في تعكير صفاء الجو الأسري معها بالزواج مرة أخري ورضي بنصيبه في هذه الدنيا خاصة وأن صفية مهدت له حياة الدعة والهناء في البيت ، وأحالت عاطفة الألفة الزوجية معه إلي عاطفة الأمومة الحنون ، وانشغل سعد بعد ذلك بالعمل الوطني حتي نفيه واشتعال ثورة ١٩١٩ ، وخلال ذلك اقترحت صفية بأن تخرج نساء مصر إلي الشارع محتجات علي نفي الانجليز لزعيم الثورة ومضت المظاهرة النسائية في شوارع القاهرة تلوح بأعلام صغيرة تهتف لسعد إلي أن وصلت إلي ميدان قصر الدوبارة في طريقها إلي دار الحماية البريطانية في جاردن سيتي [٣] ، وخلال ذلك كانت صفية تصدر البيانات النارية التي تهتف لسعد وتهاجم الاحتلال وتوقعها بامضائها .. ومن مواقفها الرائعة أثناء الثورة أيضا أنها ارتدت فستانا مصنوعا من العلم المصري بلونه الأخضر وفيه هلال داخله ثلاثة نجوم بيضاء ، وصورت به وتم طبع الصورة في منشورات كان الفلاحون يعلقونها في بيوتهم [٤] .

---

(١) بمعني يتزوج مرة ثانية .
(٢) مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر : مذكرات سعد زغلول ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨ (بتاريخ ٤ أغسطس ١٩١٧) .
(٣) عبد المنعم الجميعي : مصر في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٢٣٩ .
(٤) مصطفي أمين : مقال عندما خرجت المرأة المصرية إلي الشارع .

وإلي جانب ذلك فقد طالبت صفية السلطات الانجليزية باعتقالها مع زوجها حتي تتمكن من السهر علي راحته ورعايته نظرا لمرضه [١] .

وبعد أن نقل سعد من سيشل إلي جبل طارق وازدادت صحته سوءا أرسل إلي زوجته برقية يدعوها للحضور إليه كي تولي العناية بأمره ، لم تتردد صفية في تلبية نداء الواجب فسافرت إليه علي أول باخرة تحركت من مصر وكان ذلك في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢ علي الرغم من المصاعب والشدائد والأخطار التي كان يمكن أن تتعرض لها [٢] وظلت صفية بجوار زوجها علي صخرة ابن زياد تتحمل معه العزلة الموحشة حتي تم الافراج عنه وعودته إلي أرض الوطن .

وهكذا كانت مواقف صفية الشجاعة سندا لزوجها خلال كفاحه من أجل استقلال مصر .

خامسا : اسماعيل صدقي وعائشة بنت يحيي باشا :

وبالنسبة للنساء في حياة اسماعيل صدقي فقد كانت احداهن سببا في اعفائه من منصبه كوزير للأوقاف في مايو ١٩١٥ [٣] ، وفي احداث فضيحة له كادت تؤدي بمركزه السياسي . فبعد أن تلقت الشرطة بلاغا بأن عوامة اسماعيل صدقي بازاء شاطيء النيل بناحية امبابة تجري فيها بعض الأمور المنافية للآداب هاجم رجال الشرطة ذهبيته فوجدوه في حالة مريبة مع عائشة . وبعد أن أخذت الشرطة بنت الباشا إلي قسم عابدين وحققت معها أطلقت سراحها خشية العواقب ومع ذلك فقد آثرت عائشة الانتحار علي مواجهة الفضيحة فتناولت السم . ومن الملفت للنظر أن

---

(١) فهيمة ثابت : الزعيم الخالد وأم المصريين في منفي جبل طارق ، القاهرة ، مطبعة الشمس ، د. ت ، ص ١٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٨ - ١٩ .

(٣) كان ذلك في وزارة حسين رشدي التي شكلت في ١٩ ديسمبر ١٩١٤ . انظر : النظارات والوزارات المصرية جـ ١ ، ص ١٨٧ .

اسماعيل صدقي سار مع المشيعين في موكب جنازتها . ولما بلغ السلطان حسين كامل نبأ هذه الحادثة دعا إليه اسماعيل صدقي ، ووبخه بكلام شديد القسوة ، وقيل أنه ركله ثم أمر باقالته [١] . ونظرا للأحكام العرفية المفروضة علي البلاد ، والرقابة التي شملت كافة وسائل النشر في ذلك الوقت لم تتمكن الصحف من الاشارة إلي هذه الحادثة بطريقة واضحة ، وإن كان بعضها قد أثار سبب الاقالة بطريقة غير مباشرة [٢] فكتبت الوطن مقالا تحت عنوان « علي الخاصة اصلاح أخلاق العامة » دعت فيه الخاصة إلي أن يكونوا المثل الكامل في الأخلاق أمام العامة ، وألا يتدلي أفراد منهم الي النقائص والوبقات بلا حياء ، وتحت هذا الخبر نشرت اجتماع مجلس الوزراء بكامل هيئته عدا وزير الأوقاف المقال [٣] .

وعلي أي حال فذرا للرماد في العيون قدم اسماعيل صدقي استقالته إلي رئيس مجلس الوزراء جاء فيها : حاولت نفي المزاعم الفاسدة التي وجهت إلي فلم أمكن من ذلك ، لهذا رأيت مع الأسف أن أقدم لدولتكم استقالتي من منصب وزارة الأوقاف . وقد قبلت استقالته علي الفور ، وعين بدلا منه ابراهيم باشا فتحي [٤] .

وقد علق سعد زغلول في مذكراته علي اقالة صدقي ، وتعيين ابراهيم فتحي مكانه بقوله « رأيت الناس غير مرتاحين إلي تعيين فتحي في الأوقاف ويقولون إن ابتذاله في الأولاد أظهر من تهتك صدقي في النساء ! وإنهم أرادوا أن يكحلوا عين المريض فأعموها ! وعندي أن هذا

---

(١) محمد سيد كيلاني : السلطان حسين كامل فترة مظلمة في تاريخ مصر ، القاهرة ، دار الفرجاني ، ١٩٦٣ ، ص ١٧٠ .

(٢) صفاء شاكر : اسماعيل صدقي ودوره في السياسة المصرية ١٩١٤ - ١٩٥٠ رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات جامعة عين شمس ، ١٩٩١ ، ص ٣٥ .

(٣) الوطن في ١٩١٥/٥/١٣ .

(٤) النظارات والوزارات المصرية جـ ١ ، ص ١٨٩ .

التعيين أثر من الروح السائدة في الحكومة ، وهي روح اضعاف الفضيلة وتقوية الرزيلة » [1] .

ومعني ذلك أن سعد زغلول أثبت بلا لبث أو مواربة أن السبب الحقيقي لاقالة صدقي كان فضيحة نسائية ، مما ألقي الكثير من الظلال علي حياته العملية ، وعلي شخصيته ، وعلي حياته الخاصة .

سادسا : مصطفي النحاس وزينب الوكيل :

قبل أن نتعرض لدور زينب الوكيل في حياة مصطفي النحاس نتساءل : هل الرجل إذا تزوج من فتاة في عمر ابنته يخضع لطالبها غالبا ، ويتيح لها فرصة السيطرة والتحكم ؟

الواقع أن ذلك يرجع إلي شخصية الرجل أولا فسعد زغلول تزوج من صفية فهمي ابنة رئيس النظار وكان عمره يضاعف عمرها ومع ذلك استطاع بشخصيته القوية وتأثيره عليها أن يعاملها كأنها فلاحة مصرية متزوجة من فلاح مصري يلزمها بالطاعة ومراعاة حقوق الزوج ، وقد قبلت صفية هذه المعاملة الغريبة عن حياتها الارستقراطية نظرا لتمكن سعد من تطويعها لارادته .

أما مصطفي النحاس فعلي الرغم من أنه خليفة سعد في رئاسة الوفد وزعامة الأمة فإنه لم يستطع أن يفعل ذلك ، بل كان علي النقيض تماما .

لقد تزوج النحاس من زينب الوكيل في ١٢ يونيو ١٩٣٤ وهو في سن الخمسين تقريبا بينما هي كانت لا تزيد عن الخامسة والعشرين . وقد استطاعت هذه الزوجة بجمالها وصغر سنها وأناقتها الخارقة وذكائها الحاد وطموحها بالاضافة إلي الفارق الاجتماعي بينها وبين زوجها لكونها أبنة باشا استطاعت أن تسيطر وتتسلط علي زوج تقدمت به السن فاستغلت

---

(١) مذكرات سعد زغلول جـ ٥ ، ص ٢٠٨٩ .

منصبه كرئيس للوزراء لكي تحسن من أوضاع عائلتها المالية ، مما أدي إلي الطعن في سمعة زوجها وتشويه سمعة الحزب الذي كان يعد من أكبر الأحزاب المصرية علي الاطلاق ، كما أدي إلي ضرب وحدة صفوف الوفد وصلابته ، وانقسامه بين مؤيد ومعارض لها .

فعلي الرغم من أن مكرم عبيد هو الذي قدم زينب الوكيل إلي النحاس في عام ١٩٣٤ فقد تسببت في إخراجه من وزارة التموين عندما رفض الاستجابة إلي طلباتها غير القانونية كتقديم التسهيلات المالية [١] ، وتقرير المشاريع التجارية لعدد من أقاربها علي رأسهم شقيقها أحمد الوكيل .

كما سعت إلي سحب سكرتارية حزب الوفد منه وطرده من عضويته مما أدي إلي انشقاقه عن الحزب علي الرغم من الصداقة الوطيدة التي كانت بينه وبين النحاس ، وتقديمه عريضة إلي الملك في نهاية مارس ١٩٤٣ تحت عنوان « الكتاب الأسود في العهد الأسود » تعرض فيه لنزاهة الحكم ، واستغلال زينب الوكيل لمنصب زوجها في شراء بالطو من الفراء الأبيض بثلاثة آلاف جنيه عن طريق السفير المصري في لندن ، وشراء سيارة باكار مجهزة بتكييف الهواء ، وانهماكها في شراء الأراضي الزراعية ، وعقدها للصفقات المالية والتجارية المشبوهة ، وتهريبها للأموال وتزويرها للمستندات ، واتجارها في المواد الغذائية ومضاربتها في البورصة وقيام الحكومة بتسديد خسارتها من باب النفقات السرية ، هذا بالاضافة إلي ما أشيع حول علاقتها بفؤاد سراج الدين مما خرّب صلابة حزب الوفد وفتت وحدة صفوفه [٢] .

يري البعض أن هناك تشابه بين تصرفات زينب الوكيل وتصرفات

---

(١) د. محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية جـ ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٢٥ .

(٢) د. علاء الحديدي : مصطفي النحاس ـ دراسة في الزعامة السياسية المصرية ، القاهرة ، كتاب الهلال ، يناير ١٩٩٣ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٥١ .

السيدة جيهان السادات . فهل ذلك صحيح هذا ما سنتعرض له خلال حديثنا عن تأثير السيدة الأولي في زوجها بعد توليه رياسة الجمهورية عندما نتحدث عن السادات والمرأة .

سابعا : الملك فاروق والنساء :

في حياة الملك فاروق العديد من النساء منهن ملكتان هما فريدة ذو الفقار وصافيناز صادق المعروفة باسم ناريمان . الأولي كانت حبه الأول والتي تزوجها وعمرها ١٦ سنة وكان زفافها صورة من ألف ليلة وليلة ، وقد أحبها المصريون واحترموها علي الرغم من خلافها مع فاروق نظرا لأنها لم تنجب له ولي العهد وكانت خلفتها بنات وانتهي أمرها بالطلاق خاصة بعد أن اتهمها فاروق بالخيانة واتهمته فريدة بالعجز الجنسي ، وبأن سعيه لاصطياد النساء الجميلات يرجع إلي رغبته في أن يداري عجزه [١] .

أما الثانية فقد خطفها الملك من خطيبها الدكتور زكي هاشم وأصر علي أن تكون الزوجة الثانية ، فقد تقدم فاروق لخطبة ناريمان صادق البالغة من العمر ١٨ سنة رغبة منه في أن تنجب له ولي العهد ، وقد تحقق له ذلك حيث أنجبت له الأمير فؤاد آخر ملوك مصر في ١٦ يناير ١٩٥٢ ، وانتهي الأمر بينهما بالطلاق في المحكمة بعد رحيل الملكية من مصر [٢] .

وإلي جانب ذلك فمن المعروف أنه كان في حياة الملك فاروق العديد من النساء من أبرزهن ناهد رشاد [٣] التي تعرفت عليه بعد حادثة القصاصين

---

(١) لتفاصيل ذلك انظر : عادل حمودة : الملك أحمد فؤاد الثانى ، الملك الأخير وعرش مصر ، القاهرة ، دار سفنكس للطباعة ١٩٩١ ، ص ٤٢ - ٤٨ .

وانظر أيضا : لوتس عبد الكريم : الملكة فريدة ، القاهرة ١٩٩٣ .

(٢) للتفاصيل انظر : حنفي المحلاوي : حريم ملوك مصر من محمد علي إلي فاروق ، القاهرة ، دار الأمين ١٩٩٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٤٣ .

(٣) هي ناهد شوقي بكير . ولدت بمدينة حلوان في عام ١٩١٧ ، وكانت أمها وخالتها من وصيفات السلطانة ملك زوجة السلطان حسين كامل أما والدها فهو الدكتور شوقي بكير الاستاذ بكلية العلوم . وقد تزوجت ناهد من الطبيب يوسف رشاد في عام ١٩٣٨ .

حنفي المحلاوي : ناهد والملك فاروق ، المرأة التي عرفت أسرار ثورة ٢٣ يوليو ، القاهرة ، الدار العربية للكتاب ١٩٩٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

التي تعرض لها الملك في نوفمبر ١٩٤٣ وذلك عندما كان زوجها يوسف رشاد يقوم بمداواة الملك من جراحه التي أصيب بها عقب انقلاب سيارته في تلك الحادثة ، فقد رآها فاروق وهو علي سرير مرضه عندما كانت تحضر لزيارة زوجها ، فأعجب برشاقتها وبجمالها وذكائها وطموحها ، وجرأتها ، وألحقها بالقصر وصيفة لشقيقته فوزية ـ زوجة شاه ايران السابقة [١] ـ وأختار لها مكانا للنوم قريبا منه ، ثم أصبحت بعد ذلك أقرب النساء إلي قلب الملك وأكثر الشخصيات تأثيرا عليه لدرجة أنها اقتربت كثيرا من كرسي العرش وصار لها مكانة الملكة غير المتوجة مما ضايق الملكة فريدة زوجة الملك الأولي ، وجعلها تتهمها بافساد زوجها لتحقيق أغراضها الشخصية . وعن طريق ناهد رشاد تم تأسيس الحرس الحديدي لتصفية خصوم الملك السياسيين ، فقد كانت ماهرة في تجنيد الأتباع الذين يقومون بتنفيذ رغبات الملك [٢] كما كانت تقوم بابلاغ الملك بكل ما يصل إلي علمها عن الجيش .

وبعد أن طلق فاروق زوجته الأولي فريدة ، وجدت ناهد في ذلك فرصة للزواج من الملك والفوز بكرسي العرش ولكن فاروق فضل عليها ناريمان مما أوغر صدرها عليه وجعلها تحجب عنه أسرار تحركات ضباط تنظيم ٢٣ يوليو [٣] والتي كانت علي علم بها من الضابط أنور السادات حتي فقد فاروق عرشه ورحلت الملكية من تاريخ مصر .

وإلي جانب ذلك فقد كان الملك فاروق علي علاقة نسائية مريبة مع الممثلة اليهودية « ليليان كوهين » التي عرفت باسم « كاميليا » والتي

---

(١) حول موضوع تعرف ناهد علي الملك فاروق التي حكتها أمام محكمة الثورة انظر : جريدة المصري في ١٩٥٣/١/٢١ .

(٢) رشاد كامل : المرأة التي هزت عرش مصر ، القاهرة ، مركز الراية للنشر والأعلام ١٩٩٤ ، ص ٦٩ – ٧٦ .

(٣) المحلاوي :مرجع سابق ، ص ٦٢ .

غرستها المخابرات البريطانية في القصر الملكي عن طريق « انطون بوللي » سكرتير خاص الملك .

لقد سافر فاروق مع كاميليا إلي قبرص وقضي معها أياما في وقت كانت المفاوضات بين مصر وبريطانيا علي أشدها من أجل تعديل المعاهدة ، وفي وقت كان جلاء القوات البريطانية من مصر يمر في مرحلة من مراحله الحاسمة ، فقد كان مجلس الوزراء برئاسة اسماعيل صدقي يرغب في الإقرار علي تعهد بريطاني بجلاء عاجل للقوات البريطانية ، ومع ذلك ضرب فاروق عرض الحائط بكل هذه الاعتبارات من أجل قضاء بعض الوقت مع كاميليا في جزيرة قبرص .

وعلي الرغم من البرقيات التي أرسلتها الحكومة المصرية إليه تلتمس منه فيها العودة إلي الاسكندرية خاصة بعد أن كانت الأزمة الوزارية قد بلغت زروتها فقد ظل في قبرص من أجل استرضاء كاميليا وشراء فيلا لها هناك (١) .

وبعد قيام الحرب من أجل فلسطين في عام ١٩٤٨ لم يتخل فاروق عن كاميليا . وعلي الرغم من تردد الشائعات حول عمالتها لليهود ونقلها الأخبار إليهم ، فقد أخفاها فاروق في شاليه ساحلي بالاسكندرية وكان يزورها أثناء القتال (٢) واستمرت الأمور علي ذلك المنوال حتي انتهت حرب فلسطين بهزيمة مريرة .

وإلي جانب ذلك فقد تردد أيضا أن الملك فاروق كان علي علاقة نسائية

---

(١) هيوج ماكليف : الملف السري للملك فاروق - ترجمة أحمد فوزي ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٧٧ ، ص ١٠٣ - ١٠٩ .
(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

بالراقصتين سامية جمال وتحية كاريوكا ، كما كان علي علاقة بالمطربة اسمهان [١]

وبينما كان فاروق يلعب القمار ويعربد كان الشعب يعاني من أزمات اقتصادية طاحنة ، كما كان الجيش يعاني من آلام هزيمة عسكرية مريرة ، وكان الحل هو خلع هذا الملك وهذا ما حدث علي يد رجالات ٢٣ يوليو .

وعلي الرغم من ذلك فإن الملك المخلوع لم يستفد من الدرس ففي منفاه بايطاليا ظل يمارس هواياته في كازينوهات القمار مع راقصات الملاهي وبنات الهوي حتي فارق الحياة في ٢٠ مارس ١٩٦٥ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين .

وهكذا كانت مغامرات فاروق النسائية سببا في تجمع السحب السوداء التي علقت بسيرته ومهدت للثورة التي أطاحت بعرشه .

ثامنا : عبد الناصر والمرأة :

وعن أثر المرأة في حياة جمال عبد الناصر فقد كان ضئيلا حقيقة أنه أحب في مستهل شبابه فتاة من حي الظاهر وكان وقتذاك ضابطا صغيرا لا يتجاوز عمره ٢٢ عاما ولكنه كان حبا صامتا أخرس علي طريقة نزار قباني بالنظرات باللفتات بالصمت الرهيب . ولما حاول الزواج منها رفضه أهلها بحجة أن لها أخت أكبر منها ولا يمكن حسب تقاليد تلك الأيام أن تتزوج قبلها فصدمت عواطفه وسكن الحزن قلبه لفترة ، وبعد أن نجح في تجاوز هذه المحنة وسحق عواطفه بدأ مشواره وتزوج تحية كاظم شقيقة صديقه عبد الحميد كاظم ، وكانت المرأة الوحيدة التي لا شريك لها في حياته [٢] .

---

(١) أدخلتها المخابرات البريطانية علي القصر الملكي لمعرفة أسرار القصر السياسية من خلال تلك العلاقة ، ولما أحست بانكشاف أمرها دبرت لها حادثة في بور سعيد حيث غرقت بعربتها أثناء عودتها .

(٢) عادل حمودة : حكومات غرف النوم ، المرأة والسلطة من المشير عامر إلي المشير أبو غزالة ، ص ١٢٣ - ١٣٢ .

لقد حاول البعض تعليل علاقة عبد الناصر بالمرأة أنه نشأ في أسرة غير سوية ، وأن علاقته بوالده الذي تزوج علي أمه بعد وفاتها لم تكن علي ما يرام وأن ذلك كان سببا في القسوة والصرامة والعناد التي اتسمت بها شخصيته .

وعلي أي حال فإنه يمكن القول أن الأنثي الخالدة في حياة عبد الناصر وفي عروقه كانت السلطة وأن المرأة في حياته لم تزد علي العيش والملح والعشرة الطيبة والأولاد .

تاسعا : عبد الحكيم عامر والمرأة :

من المعروف أن عبد الحكيم عامر نشأ في أسرة ريفية طيبة المعدن ، وأنه بعد اعتلائه السلطة ترددت الأقاويل حول علاقاته الغرامية المتعددة والتي كان أكثرها شهرة علاقته بالمطربة الجزائرية وردة والتي ظلت سرا حتي أعلنتها اذاعة دمشق يوم الانفصال ، وزواجه السري من الممثلة السينمائية صاحبة الأدوار الغرامية المثيرة « نفيسة عبد الحميد حواس » الشهيرة ببرلنتي عبد الحميد التي التقي بها بعد الانفصال في شقة بالزمالك خلال محاولات بعض رجاله التخفيف عن أزمته النفسية بعد المعاملة غير الانسانية التي لقيها من الانفصالين في سورية [١] . وقد لفت نظره إليها ثقافتها المتعددة واجادتها لبعض اللغات مثل الفرنسية والايطالية لدرجة أن تطورت العلاقات بينهما إلي زواج عرفي صعق له الرئيس عبد الناصر عندما أبلغ به ، واستدعاه لمقابلته من أجل هذا الغرض في مارس ١٩٦٧ وسأله غاضبا متألما عن حقيقة الأمر ، وقد اعترف له عبد الحكيم بهذه العلاقة وبرر الأمر بأنه وجد انسانة تفهمه [٢]

---

(١) روز اليوسف ، العدد ٢٣٤٣ .

(٢) حمودة : مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

عاشرا : السادات والمرأة :

أما عن الرئيس محمد أنور السادات فكانت زوجته الأولي قروية لم تحظ بقسط من التعليم ، وكانت تكبره بسبع سنوات ، وأغلب الظن أن زواجه منها يرجع لأسباب الوجاهة الاجتماعية أكثر من كونه زواجا يتصل بالعواطف خاصة وأن والدها كان عمدة ميت أبو الكوم علي حين كان والد السادات موظفا صغيرا بالمستشفي العسكري بالقبة ، وأمه « ست البرين » ابنة فلاح سوداني [1] . لذلك كان تأثير هذا الزواج علي حياة أنور السادات ضعيفا .

أما عن الزوجة الثانية « جيهان صفوت رءوف » الشهيرة بجيهان السادات فقد كانت قوة ضخمة في حياة زوجها عندما كان يحكم مصر ، وساعدها علي ذلك طموحها الجامح التي كانت مستعدة لبذل كل شيء من أجله . كان السادات يكبرها بخمسة عشرعاما وكان متزوجا قبلها ، ومفلسا معدما ومطاردا وبلا وظيفة مأمونة ومع ذلك فقد أحست أنه رجلها التي تهواه .

إننا لم نسمع عن أي نشاط هام للسيدة جيهان قبل وصول زوجها إلي الحكم . ولكن بعد وفاة عبد الناصر واعتلاء زوجها أريكة الحكم رأت جيهان ألا تكتفي بدور زوجة الرئيس بل كونت لنفسها بلاط خاص يضم المحاسيب والشماشرجية ، وقفزت إلي دور المشاركة في الحكم وفي السلطة وفي أدق أسرار الدولة ، وامتد نفوذها إلي كل المواقع ، وعلي كل المسئولين ترأس الاجتماعات ، وتصدر التعليمات وتدلي بالأحاديث وتتابعها الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، وتسافر ممثلة لمصر ومتحدثة ومتفاوضة حتي لو كان دورها لا يستند إلي أي تشريع أو عرف ، فقد كانت أقوي من التشريع ومن

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ، القاهرة ، المكتب المصري الحديث ، ص ٩٥ .

العـرف ، ومن كل الذين جـاءوا إلي مـراكـزهم نتـيـجـة جـهـدهم وعـملهم ومثابرتهم . كانت رغباتها بالنسبة لكافة المؤسسات أوامر لا ترد ويا ويل من يعصي لها أمرا .

فمن أجلها اجتمع مجلس جامعة القاهرة خصيصا واتخذ قرارا باعفاء الطلاب المتفوقين في دراستهم من السنة التمهيدية للماجستير إذا وافق مجلس الكلية ووافق بالفعل مجلس كلية الآداب جامعة القاهرة علي اعفائها من السنة التمهيدية وسمح لها باعداد رسالة الماجستير ، وحصلت عليها في موكب مهيب علي مشهد ومسمع من مصر كلها قال خلاله أحد الأساتذة أثناء مناقشته لها أن الرسالة تستحق الدكتوراه لما بذل فيها من جهد ، وقد علق الدكتور عبد العظيم أنيس علي ذلك في جريدة الأهالي فذكر أنه قد أصابه الغثيان والدوار بعدما شاهد ما حدث علي شاشة التلفزيون من تمجيد كبار رجال الجامعات لها خاصة وأن الجامعة تعد حارسة القيم ومنارة العلم وأن أساتذتها هم صفوة عقول مصـر ، والمعبرين عن فكرها وقيمها .

حقيقة أن السيدة جيهان كانت تتميز بارادة قوية ، وكان لديها ثقافة متميزة وتعرف الانجليزية بطلاقة وربما بعض اللغات الأخري ، وأن هذه السمات كان يمكن أن تتيح لها حتي لو لم تكن زوجة لرئيس الجمهورية الحصول علي درجتي الماجستير والدكتوراه خاصة وأننا نري بعض الحاصلين علي هذه الدرجات في هذه الأيام ربما كانوا أقل منها ثقافة ومعرفة ، ومقدرة ، ومع ذلك فمن الصعب أن ننكر أن السيدة الأولي كانت محبة للشهرة والسلطة وأن التحاقها بالجامعة ورغبتها في أن تكون عضو هيئة تدريس يعد تكملة للديكور التي اختصته لنفسها .

ومن أجلها تباري بعض المسئولين في منحها العديد من الألقاب فقد

صرح نقيب الأطباء ووزير الصحة السابق علي الملأ في حرم كلية طب الدمرداش بأن السيدة جيهان تمرست في الطب بعملها في رئاسة الكثير من مؤسساته وأنها تستحق لقب طبيبة مصر الأولي ، وأثني علي كلامه وزير الصحة [١] .

ومن أجلها وصفها أحد الشعراء الذي يعد من طائفة المعلمين وإن كنا نضمه إلي بطانة المنافقين في حفل عام له جلاله وهو عيد العلم فقال في أبيات شعرية مستوحيا طلعتها البهية بأنها أجمل نساء العالم وأن الله اختصها بنصف الجمال ، وباقي النساء بالنصف الآخر .

هكذا كان المناخ الذي احيطت به سيدة مصر الأولي ، أفبعد هذا الكلام المعسول من صفوة عقول مصر تلام السيدة جيهان علي ما فعلته .

يقولون أنـها كـانت تغـار من أي سـيدة أجمل أو أذكي منها وأنها لا تريد أن تدانيها أي امرأة ولا يتوازي بجانـبها أحد [٢] .

لقد حنقت السيدة جيهان علي سيدة الغناء العربي « أم كلثوم » إحدي الهبات الخالدات التي أسعدت الملايين ويصعب أن يجود الزمان بمثلها ، والتي كانت لها منزلة كبري ليس في قلب الشعب المصري وحسب بل والشعوب العربية كلها .

لقد كانت أم كلثوم متباسطة مع كل أعضاء مجلس الثورة فتناديهم بأسمائهم دون ألقاب . كانت تقول للسادات قبل توليه منصب رئيس الجمهورية يا أبا الأنوار وبعد أن تولي السادات الرئاسة نادته بذات اللقب الذي تعودت عليه في حفل حضرته جيهان فما كان من جيهان إلا أن وجهت

---

(١) سعاد أبو السعود : قصتي مع جيهان السادات ، القاهرة ، مؤسسة أمون للطباعة والنشر ، د. ت ، ص ٣٢ .

(٢) نوال السعداوي : مذكراتي في سجن النساء ، القاهرة ، دار المستقبل العربي ١٩٨٢ ، ص ٢١٢ .

لها تحذيرا شديد اللهجة فقالت لها « الزمي حدودك أنت تتحدثين إلي السيد الرئيس محمد أنور السادات رئيس الجمهورية » فغادرت أم كلثوم الحفل غاضبة وأصيبت بأزمة نفسية ، وبعدها تعرضت لحملة ضارية من جيهان كان من نتيجتها تعمد اهمال مشروع دار أم كلثوم للخير الذي كانت أم كلثوم قد قررت تشـيـيده من أجـل أبناء الشعب الفقراء ، خاصة وأن عثمان أحمد عثمان قد آثر السلامة ، وتهرب من التعاقد علي بناء مشروع أم كلثوم الذي حل محله مشروع الوفاء والأمل الذي ارتبط باسم جيهان السادات [١] . ولاذت أم كلثوم بعد ذلك بالصمت والتقوقع حتي مرضت مرضها الأخير وماتت كوكب الشرق بالحسرة ومات مشروعها للخير ، واستولت جمعية الوفاء والأمل علي مخصصات المشروع .

وحنقت السيدة جيهان علي الدكتورة « نوال السعداوي » بعد أن قابلتها في مؤتمر كوبنهاجن العالمي للمرأة في يوليو ١٩٨٠ وأوغرت صدر زوجها عليها مما أدي إلي سجنها في سجن القناطر بحجة أنها هاجمت معاهدة كامب ديفيد في هذا المؤتمر [٢] .

وحنقت علي الدكتورة « سعاد أبو السعود » أمينة التنظيم النسائي في الفترة من عام ١٩٧٥ إلي عام ١٩٧٩ فأعلنت الحرب عليها وعلي زوجها الدكتور عبد العزيز سليمان رئيس جامعة عين شمس الأسبق الذي قاوم جهد طاقته أي محاولة للتدخل في شئون جامعته ، ورفض كل الاستثناءات بشتي صورها حتي لو كانت تنفيذا لرغبة السيدة الأولي مما جعل السيدة جيهان تضمر له السوء [٣] بشكل تناوله بتفاصيله المذهلة في كتابه «محنتي»

---

(١) سعاد أبو السعود : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٢) نوال السعداوي : مذكراتي في سجن النساء ، ص ٢١٢ .

(٣) من أمثلة غضب السيدة جيهان عليه أنه بعد أن أحال صديقتها الدكتورة نعمت هاشم الاستاذة بكلية الطب إلي مجلس التأديب لتعديها علي زملائها ، اعتذر عن طلب جيهان بالعدول عن هذا القرار .

ففرضت عليه الحراسة وقدم للمحاكمة حتي برأه قضاء مصر العادل بعد أن زالت سطوة جيهان .

كما عاقبت سعاد أبو السعود ليس فقط بعزلها من رئاسة التنظيم النسائي بل بالغاء التنظيم نفسه .

وبعد كل ذلك فالسؤال المطروح هل كانت السيدة الأولي تتسلط علي زوجها أيضا ، وهل كان السادات يستسلم لرغبات زوجته في السلطة والشهرة تجنبا لاثارة المشاكل معها ، وحرصا علي هدوء البيت ، وهل كانت شخصيتها تفرض عليه كل رغباتها بالرغم من أنه كان يفتخر بأنه فلاح وينادي باتباع أخلاق القرية وتقاليد الريف ؟

الواقع أن ذلك كان يحدث كثيرا لدرجة أن بعض تصرفاتها التي تتم علي غير رغبته كانت تسبب له الاحراج في بعض الأحيان والأمثلة علي ذلك متعددة نذكر منها :

١ - خلال احدي زيارات الرئيس السادات للسعودية أصرت السيدة جيهان علي اصطحابه ، ومع أن السفارة السعودية في القاهرة كانت قد اقترحت أن تظل حرم الرئيس في الطائرة عند وصولها لمدة ساعة حتي تنتهي مراسم الاستقبال ، فقد رفضت جيهان ذلك بقولها « لماذا يجب أن أتواري عن النظارة لمجرد أنني سيدة ؟ أنا لا احتجب عن الرجال في مصر ، ولن أفعل ذلك في أي مكان آخر » [١] وأصرت علي رأيها وظهرت علي باب الطائرة بجانب زوجها وتعقبتها كاميرات التليفزيون السعودي وهي تغادر صالة الاستقبالات في المطار مع الأمراء السعوديين مما سبب احراجا للملك « خالد بن عبد العزيز » أمام شعبه المحافظ المتشدد الذي

---

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ، ص ٤٠٥ .

لا يقبل ظهور امرأة مسلمة علانية بصحبة رجال ، كما سبب احراجا للرئيس السادات أيضا خاصة وأنه لم يكن يتوقع أن يحدث ذلك من زوجته التي نهضت دون سابق انذار وخرجت من باب الطائرة لتقف بجواره أمام كل العدسات وفي مطار كامل بالرجال [١] .

٢ - إن نفوذ السيدة جيهان المتزايد علي زوجها وتدخلها في أدق أموره جعله يبتعد عنها في معظم الأوقات إلي استراحته ، ويقضي أوقات فراغه مع عثمان أحمد عثمان أكثر مما يقضيها في بيته معها مما جعلها رغم المصاهرة بينهما تكرهه إلي حد كبير [٢] .

وبعد هذا العرض هل يمكن القول أن هناك سمات مشتركة بين زينب الوكيل وجيهان السادات ؟

الواقع أن المقارنة بينهما متقاربة إلي حد كبير فقد تزوج النحاس زينب وكان يكبرها بخمس وعشرين عاما ، وتزوج السادات جيهان وكان يكبرها بخمسة عشر عاما . وكما استطاعت زينب الوكيل التأثير علي زوجها والقفز إلي دور مشاركته في أمور الحكم ، فقد فعلت جيهان ذلك ويزيد ، وكما نجحت زينب الوكيل في ضرب سمعة نزاهة الحكم والاساءة إلي سمعة زوجها فقد نجحت جيهان في ذلك بضربها عرض الحائط بكل مالا يتلاءم مع مطالبها ورغباتها .

يضاف إلي ذلك أن جيهان استطاعت أن تفعل ما لم تستطع زينب أن تفعله وربما يرجع ذلك إلي ظروف عصر كل منها فمثلا تدخل السيدة جيهان فيما يسمي قانون جيهان للأحوال الشخصية [٣] وحق المرأة في طلب

(١) سعاد أبو السعود : مرجع سابق ، ص ١٢٢ .
(٢) نفسه ، ص ١٢٤ .
(٣) حول دور جيهان في اصدار هذا القانون ، وموافقة مجلس الشعب عليه في ٣ يوليو ١٩٧٩ ، انظر سيدة من مصر ، ص ٤١٧ .

الطلاق ، والشقة من حق الزوجة ، وتدخلها في اصدار قرار باضافة ثلاثين مقعدا تخصص للمرأة في مجلس الشعب ، وتخصيص من ١٠ إلي ٢٠ في المائة من المقاعد الستة والعشرين في المجالس الشعبية للمرأة كل ذلك لم يكن واردا علي الاطلاق أيام زينب الوكيل .

وعلي أي حال فإن النظام الليبرالي الذي ساد مصر في عهد النحاس جعل معارضيه يثيرون الحملات الضارية ضد زوجته مثل موضوع شرائها للبالطو الفرير والسيارة الباكار دون أن يتعرض أحدهم لأذي أما النظام الليبرالي في عهد السادات فإنه لم يتحمل نقد الدكتور محمد حلمي مراد للسيدة الأولي فعندما تحدث عن اختصاصات حرم رئيس الجمهورية والتجاوزات التى تقوم بها استنادا الي مركز زوجها تم إهانته وإدخاله السجن .

ومما سبق يتضح دور المرأة البارز في تكوين الزعامات المصرية ومساندتها وتحديد مسارها والتأثير فيها أحيانا ، ودورها أيضا في توريط هذه الزعامات والاساءة إليها في أحيان أخري .

مطبعة الجبلاوي
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية - شبرا
ت : ٦٨١٨٩٥

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٠٤٩ / ١٩٩٦
I. S. B. N. 977 - 19 - 1668 - 8